أدب وطرب

تأليف

د. جمال الدين الرمادي

الكتاب: أدب وطرب

الكاتب: د. جمال الدين الرمادي

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الرمادي ، د. جمال الدين

أدب وطرب / د. جمال الدين الرمادي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢٤ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٣ – ٧٧٩ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠٦٦٣ / ٢٠١٨

أدب وطرب



مقدمة

هذه هي صفحات من الأدب والفن أعرضها على الجيل الجديد لعله يجد فيها متعة ولذة، ولعله يقف على ألوان مختلفة من الجهود الكبيرة في خدمة الثقافة والفكر والفن الرفيع.

وقد أثرت أن أعرض لشخصيات من الماضي البعيد والماضي القريب في الأدب والفن لأن الجيل الجديد قلما يمعن النظر في البحث والاستقصاء، في بطون الكتب القديمة لاستخراج ما فيها من متعة فنية وجمال أدبي مكنون.

وحاولت ما استطعت إلى ذلك سبيلاً أن أقرب إلى الأذهان رجال الأدب والفكر حتى يستخلص منهم الشباب العبرة ويرجعوا إلى المصادر الأولى لدراستهم والبحث في سيرهم وبطولاتهم كما حاولت أن أقرب إلى الآذان تلك الجهود الفنية الكبرى التي قام بها رجال الفن في الجيل الماضي فمهدوا لظهور إنتاج فني مبدع رائع نتذوقه الآن في كل مكان كما خلقوا نتاجاً موسيقياً وغنائياً سامياً لا نزال نجد فيه القدرة الفنية المتينة والموهبة الفنية الخالدة.

وعندي أن روائع الأدب والفن القديم أشبه بالغابة الفيحاء المترامية الأطراف الممتدة الجوانب التي ترتفع فيها الأشجار الساقعة وتضرب في عنان السماء الأرواح الشامخة، وتتناثر فيها الأشجار الكثيفة، والأغصان الملتفة، والأفنان المتشابكة، والحشائش الطويلة، والأزهار التي تنمو على غير نظام أو اتساق، أو ترتيب أو وفاق، وفي حاجة ملحة، ورغبة شديدة إلى بستاني ماهر ليشذب أشجارها، وأغصانها، ويقلم حشائشها، ويصلح من حالها، حتى تبدو حديقة غناء وارفة الظلال، أنيقة المظهر، بديعة الشكل، متسقة الأحواض– منظمة المماشي، متسقة الجداول والغدران، تبعث في النفس البهجة وتثير في القلب المتعة، وتكون للعين قرة ومسرة.

وقد حاولنا على قدر المستطاع أن نقوم بدور هذا البستاني وهو عمل شاق عسير يحتاج إلى جهاد وصبر طويل. نسأل الله أن تكون حديقتنا جميلة ممتعة، وان يكون روضنا جذاباً خلاباً. يؤمه شباب الجيل الجديد ليجدوا فيه أنساً وبهجة كما يؤمه شيوخ الجيل القديم ليجدوا فيه تجديداً لعصر ولي وشباب تمنوا أن يعود يوماً !

المؤلف

أدب

أدب امرؤ القيس

هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو الكندي، من قبيلة كندة اليمنية، وأمه أخت كليب ومهلهل ابني ربيعة من عدنان وكان أبوه ملكاً على بني أسد، فساءت سياسته فيهم واستبد بهم فثاروا عليه وقتلوه. وقضى أمرؤ القيس بقية حياته بين ثأر لأبيه وعمل استرداد ملكه.

وقد اختلف في تاريخ وفاته، فذكر بعض المؤرخين أنه توفى عام ٥٤٠م وذهب فريق آخر إلى أنه توفى عام ٥٣٠م. ويكني أمرؤ القيس– على ما ذكر أبو عبيدة "أبا الحارث" وقال غيره يكنى "أبا وهب" وكان يقال له "الملك الضليل" وقيل أيضاً "ذا القروح". وإياه عنى الفرزدق الشاعر الأموي بقوله:

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا   وأبـو يزيـد وذو القـروح وجـرول

ولما ترعرع أمرؤ القيس أخذ يقول الشعر، وقيل إن المهلهل خاله لقنه هذا الفن، فبرز فيه على شعراء عصره، وكان مع صغر سنه يحب اللهو، ويستتبع صعاليك العرب، ويتنقل بين أحيائها وقيل إن أول شعر نظمه قوله:

أذود القـــوافي عنـــي زيـــاداً ذيـاد غـلام جـريء جـوادا

فبلغ قوله والده، فغضب عليه لقوله الشعر– وكانت الملوك تأنف من ذلك– ودعا مولى له يقال له ربيعة، فقال له: "اقتل امرؤ القيس، واثتني بعينيه" فذبح جؤذراً وأتاه بعينيه فندم حجر على ذلك؛ فقال المولى: "أبيت اللعن وإني لم أقتله". قال: فائتني به. فانطلق فإذا هو ينظم الشعر على رأس الجبل ويقول:

فـــلا تتركنـــي يـــا ربيـــع لهـــذه وكنت أراني قبلها بك واثقاً

وصاحبه ربيعة إلى أبيه، فنهاه عن قول الشعر، بيد أنه لم يطع أوامره، فاضطر والده إلى طرده من المنزل، فهام على وجهه في الفلاوات وأخذ يتنقل من مكان إلى مكان؛ ويقف عند الغدران أو يعرج على إحدى الرياض؛ أو يعرج على موضع من مواضع الصيد، فينطلق مع أصحابه خلف ظبية من الظباء... حتى إذا ما أضناه التعب، جلس تحت دوحة أو إلى جانب غدير، وجعل يترنم مع أصحابه بشتى الأشعار؛ وهم يتساقون كئوس الراح.

وما زال يعيش هذا اللون من حياة العبث والطيش مع أصحابه وأخلاطه من شذاذ العرب من طيء وكلب وبكر بن وائل، حتى سمع بمقتل أبيه حجر بن الحارث؛ فحطم كأس الشراب، وعول على الانتقام من قتلة أبيه؛ وهو يردد قوله المشهور "اليوم خمر وغدا أمر".

وقضى امرؤ القيس فترة من الوقت متخفياً في اليمن ونجد الحجاز وهو يستنجد القبائل للأخذ بثأر أبيه؛ فأعرض عنه بعض القبائل... بيد أن السموءل– صاحب حصن الأبلق– أجاره وأمده ببعض العون، ثم طلب منه أن يكتب إلى الحارث بن أبى شمر الغساني ليوصله إلى قيصر ففعل ذلك، وسار إلى الحارث، وحمل أهله وماله وأودعه عند السموءل، ثم سيره الحارث إلى قيصر. وفي ذلك يقول:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقـــن أنـــا لاحقـــان بقيصـــرا

فقلــت لــه: لاتبــك عينــك إنمــا نحــاول ملكــا أو نمــوت فنعــذرا

ولما وصل إلى قيصر أكرم وفادته وأمده بجيش كثيف، فيه جماعة من أبناء الملوك. واندس في قصر قيصر على أمريء القيس بالوشايات، فأهدي قيصر امرأ القيس حلة مسمومة منسوجة بالذهب، وكتب إليه "إني أرسلت إليك حلتى التي كنت ألبسها؛ تكرمة لك، فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة، واكتب إلى بخبرك من منزل إلى منزل".

فلما وصلت الحلة إلى امريء القيس لبسها واشتد سروره بها؛ فسرى في جسده السم الزعاف وتساقط جلده من أثر السم؛ ولذلك سمى "ذا القروح" وقال امرؤ القيس في ذلك:

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبســني ممــا يلــبس أبؤســا

فلــو أنهــا نفــس تمــوت جميعــة ولكنهــا نفــس تســاقط أنفســا

ويقول ابن الكلبي: فلما وصل إلى بلدة من بلاد الروم تدعي "أنقرة" احتضر بها ورأى قبراً دفنت فيه امرأة من أبناء الملوك فقال:

أجارتنـــا أن الخطـــوب تنـــوب وإنـي أقـيم مـا أقـام عسـيب
أجارتنـــا أنـــا غريبـــان ههنـــا وكـل غريـب للغريـب نسـيب

وقد زعم بعض المؤرخين أن اسم "عسيب" الذي ورد في البيت الأول جبل بالقرب من انقرة، في حين ذهب آخرون إلى أنه الجبل المعروف بهذا الاسم في نجد.

وتوفى الشاعر في أنقرة بين عامي ٥٣٠-٥٤٠ للميلاد.

وشعر أمريء القيس نموذج رفيع للسعر العربي في الجاهلية، ويمتاز شعره بروعة المعاني وحلاوة التمثيل، وجمال الصور، وإشراق الديباجة. يقال إن الشعر باديء بامريء القيس لأنه أول من قصد القصائد، وكان الشعر قبله لونا من الرجز ونوعا من الحذاء.

وقد نطق امرؤ القيس بالشعر منذ نعومة أظافره عن موهبة صادقة وقريحة فياضة وكان الملوك قبله يأنفون أن ينظموا الشعر، ويعدونه لوناً من العبث، وضرباً من الضلال، وقد نهاه والده عن قرضه بيد أن شاعريته أبت إلا أن تهيم في سموات الخيال، وتنطلق مترنحة بأفانين الجمال.

وقد ساعدته أسفاره العديدة وتنقلاته الكثيرة على إطلاق خياله من عقاله، فأتى بصور جديد لم يكن العرب يألفونها من قبل، ولم ترد في شعرهم ومثال ذلك كلمة "السجنجل" بمعنى المرآة التي لم يكن يعرفها العربي قبل ذلك و"سراج الراهب" الذي ورد ذكره في معلقته.

وكان امرؤ القيس فضلاً عن ذلك لا يغفل ذكر الأماكن في شعره وقد جاراه في ذلك غيره من الشعراء الجاهليين، ولولا هذا الحرص لضاع نصف جغرافية بلاد العرب، ولذلك كان شعر امريء القيس وأضرابه من شعراء العصر الجاهلي مرجعاً لياقوت الحموي والبكري في معجميهما.

وقد برع امرؤ القيس في تصوير الحيوانات براعة فائقة. وأخذ يترسم جميع حركاتها وسكناتها وثورتها وهدوئها؛ ويقظتها ورقادها. وتتبع الطير في انطلاقاته بين الأفنان أو ركونه إلى الأعشاش أو تهويمه ويجليقه في الفضاء.

ويقول ابن الكلبي: فلما وصل إلى بلدة من بلاد الروم تدعي "أنقرة" احتضر بها ورأى قبراً دفنت فيه امرأة من أبناء الملوك فقال:

أجارتنا أن الخطوب تنوب ... وإني أقيم ما أقام عسيب
أجارتنا أنا غريبان ههنا ... وكل غريب للغريب نسيب

وقد زعم بعض المؤرخين أن اسم "عسيب" الذي ورد في البيت الأول جبل بالقرب من أنقرة، في حين ذهب آخرون إلى أنه الجبل المعروف بهذا الاسم في نجد.

وتوفى الشاعر في أنقرة بين عامي ٥٣٠-٥٤٠ للميلاد.

وشعر امريء القيس نموذج رفيع للشعر العربي في الجاهلية، ويمتاز شعره بروعة المعاني وحلاوة التمثيل، وجمال الصور، وإشراق الديباجة. ويقال إن الشعر باديء بامرئ القيس لأنه أول من قصد القصائد، وكان الشعر قبله لوناً من الرجز ونوعاً من الحداء.

وقد نطق امرؤ القيس بالشعر منذ نعومة أظافره عن موهبة صادقة وقريحة فياضة وكان الملوك قبله يأنفون أن ينظموا الشعر، ويعدونه لوناً من العبث، وضرباً من الضلال، وقد نهاه والده عن قرضه بيد أن شاعريته أبت إلا أن تهيم في سموات الخيال، وتنطلق مترنحة بأفانين الجمال.

وقد ساعدته أسفاره العديدة وتنقلاته الكثيرة على إطلاق خياله من عقاله، فأتى بصور جديدة لم يكن العرب يألفونها من قبل، ولم ترد في شعرهم ومثال ذلك كلمة "السجنجل" بمعنى المرآة التي لم يكن يعرفها العربي قبل ذلك، و"سراج الراهب" الذي ورد ذكره في معلقته.

وكان امرؤ القيس فضلاً عن ذلك لا يغفل ذكر الأماكن في شعره وقد جاراه في ذلك غيره من الشعراء الجاهليين، ولولا هذا الحرص لضاع

نصف جغرافية بلاد العرب، ولذلك كان شعر امريء القيس وأضرابه من شعراء العصر الجاهلي مرجعاً لياقوت الحموي والبكري في معجميهما.

وقد برع امرؤ القيس في تصوير الحيوانات براعة فائقة. وأخذ يترسم جميع حركاتها وسكناتها وثورتها وهدوئها؛ ويقظتها ورقادها. وتتبع الطير في انطلاقاته بين الأفنان أو ركونه إلى الأعشاش أو تهويمه وتجليقه في الفضاء.

وأجاد كذلك تصوير مظاهر الطبيعة بجداولها وغدرانها وأشجارها وأفنانها؛ وليلها ونهارها؛ وشمسها وقمرها؛ وبرقها ورعدها وصحوها ومطرها... حتى أصبح لا يشق له غبار في هذا المضمار.

أما غزل امريء القيس فيدل على أنه كان كثير التنقل بين النساء؛ فتقلب الأهواء. وقد ذكر اسم أكثر من واحدة في شعره؛ فذكر اسم فاطمة؛ وليلى وسعاد؛ وماوية؛ وهند؛ والرباب؛ وعنيزة؛ والخنساء؛ وهر؛ وغيرهن.

ويغلب على الظن أن هذه الأسماء مستعارة وإن حاول بعض الشراح أن يرجعوا بعضها إلى شخصيات معروفة... فقال الزوزني عن عنيزة إنها بنت عمه شرحبيل وقيل هو لقب لها واسمها فاطمة، وقال الطوسي عن هر إنها ابنة عمه العامري. وسواء أكانت هذه الأسماء لشخصيات معينة أو غير معينة فإن شعر امري القيس فيها يدل على أنه شاعر يتلمس الجمال أينما كان، وحيثما رحل، لا تقيده فتاة معينة بأغلال

حبها، وأصفاد هيامها... بل هو ينتقل بين النساء كالنحلة من زهرة إلى زهرة. وقد لجأ امرؤ القيس في شعره الغزلي إلى كثير من الصراحة دون تردد أو إحجام، كما استعان بالأسلوب القصصي في غزله.

ويعد هذا الأسلوب القصصي من أبرز المميزات التى تحدد شعر امريء القيس وقد جرى عمر بن أبي ربيعة في الحجاز على نمطه، ونسج على منواله. وامرؤ القيس أول من وقف على الأطلال واستوقف عليها، وبكى من ذكر الأحبة، وذرف الدموع على الأيام الخوالي. قال الفرزدق: "امرؤ القيس أشعر الناس" وقال أبو عبيدة: "أشعر الناس امرؤ القيس، ثم زهير، والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو، وطرفة".

ومن أروع شعر امريء القيس معلقته التي نظمها في وصف واقعة حدثت بينه وبين حبيبته وابنة عمه عنيزة بنت شرحبيل. وهذه المعلقة هي إحدى القصائد التي قيل إن العرب بلغ من تعظيمهم إياها أن علقوها على أستار الكعبة، ومن هنا سميت بالمعلقات. وفي ذلك يقول صاحب العقد الفريد: "وقد بلغ من كلف العرب به (بالشعر) وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد ميزتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلقتها في أستار الكعبة... فمنه يقال مذهبة امريء القيس ومذهبة زهير... والمذهبات سبع وقد يقال لها معلقات".

واختلف الرواة في عدد هذه لامعلقات فبعضهم يراها سبعاً، وبعضهم يراها ثمانياً وبعضهم يراها عشراً. أما الذين يرونها سبعاً، فشعراء

المعلقات، لديهم هم امرؤ القيس، زهير، لبيد، عمرو بن كلثوم، عنترة طرفة، الحارث بن حلزة.

والذين قالوا إن شعراء المعلقات عشرة يزيدون الحارث بن حلزة وعبيد بن الأبرص.

وليس بين المؤرخين اختلاف في اعتبار قصيدة امريء القيس من المعلقات... بل إنها على رأس المعلقات جميعاً.

ولامريء القيس شعر آخر غير هذا المعلقة التي تقع في ثمانين بيتاً من البحر الطويل ومن هذا الشعر قوله في قصيده:

إذ المرء لم يحزن عليه لسانه　　فليس على شيء سواه بخزان

وقد جرى هذا البيت مجرى المثل، وذكر في مجالات الاستشهاد، كما قال:

والله أنجح ما طلبت به　　والبر خير حقيبة للرجل

ومن أروع صورة قوله:

كأن عيون الوحش حول خبائنا　　وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

يقصد أن عيون الوحش الذي كان يصيده كانت متفرقة حول الخيام والمطايا كأنها الخرز غبر المثقوب، وهذا تشبيه جميل أشبه بتشبيه شوقي:

وترى الجماجم في التراب تشابهت بعـد العقـول تشـابه الأصـداف

ومن صوره الرائعة كذلك، التي تنم عن ذوق مستحدث طريف قلما نجده عند غيره من الشعراء الجاهليين أو الإسلاميين قوله:

ويـارب يـوم قـد لهـوت وليلـه بآنسـة كأنهـا خـط تمثـال

فهذا معنى جديد يدل على شاعرية مرهفة. ولعل امريء القيس كان من أشد الشعراء تعلقاً باللذة العاجلة والمتعة الطارئة، فهو يريد أن ينهب اللذات سراعاً، ويشرب كئوس الحياة غداقاً قبل أن تعدو عليه المنون، وتنشب فيه المنية أظفارها فقال:

تمتـع مـن الـدنيا فـإنم فـإن من النشـوات والنسـاء الحسـان

هذا وقد طبع ديوان امريء القيس في باريس مع مقدمة فيها ترجمته وأخباره عام ١٨٣٦م وطبع في بمباى عام ١٣١٣هـ. ونشر أغسطس مولر معلقته مع تعليقات وشروح باللغة الألمانية عام ١٨٦٣م، وترجمه إلى اللغة الروسية الأب جرجس مرقس، ونشره في بطرسبرج عام ١٨٨٩م وشرحه البطليموسي النحوي المتوفى عام ٤٩٤هـ، وطبع الشرح بمصر عام ١٢٨٢هـ وتعرض لحياته المرزباني في كتابه

"الموشح"، والآمدي في كتابه "المؤتلف" وابن نباتة في كتابه "سرح العيون". وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب "الأغاني" طرفاً من سيرته وشعره وقد طبع ديوانه تارة جملة واحدة وتارة نشرت المعلقة وحدها. وشرح البريزي المعلقات السبع، ونشر المستشرق الإنجليزي ف. ي. جونسون ترجمة إنجليزية لهذه المعلقات مع بعض الشروح كما ترجمها كذلك سير وليم جونز إلى اللغة الانجليزية، ونشرت الترجمة في لندن.

معلقة امرؤ القيس

لتصغ إلى هذا الصوت الذي يأتي إلينا من بعيد، من بعيد جداً رفيقاً رقيقاً، ولتصغ إلى هذه الأبيات التي يترنم بها هذا الصوت، بل لتقبل معي ولنتقدم شيئاً فشيئاً ليكون لنا حظ في الرؤية كما يكون لنا حظ من السماع.

ها هو ذا امرؤ القيس يمضي مع صاحبه في الفلاة لا يكاد ينبس ببنت شفة، ولكن ماذا؟ ما هو الذى أخرجه عن صمته ودفعه إلى الحديث دفعاً؟ ها هو ذا ينظر إلى الديار التي أمامه ويطيل النظر ويفكر ويطيل التفكير ثم ها هو ذا يدعو صاحبه أن يقفا في هذا المكان ليبكي امرؤ القيس وليبكي صاحباه أيضاً إن لم يجدا في البكاء بأساً ولم لا يكون هذا؟ وهم أمام ديار الأحباء الأعزاء. تلك الديار التي انتشرت الظباء البيضاء في ساحاتها زمناً ما ومواطن الماء فيها، وهبت عليها ريح الجنوب تارة، وريح الشمال تارة أخرى، فعبثت بمعالمها، ولكن صورتها

رغم ذلك جاثمة فى قلبه، باقية في فكره، راسخة بين جوانحه، لم تبل جدتها ولم تذهب فتنتها..

ثم ها هو ذا امرؤ القيس يذكر لصاحبه ذلك اليوم الذي ودع فيه صواحبه عند هذه الشجرات الشوكية المعروفة في الصحراء، ويذكر لصاحبه ما ذرفته عيناه من دمع، فبدا يوم ذاك وكأنه ذلك الرجل الذي يجمع الحنظل من شجرة فعيناه دامعتان من فرط حرارته وحدة عرفه.

ثم ها هو ذا امرؤ القيس يلحق بصاحبيه الذي تقدماً عنه بعض التقدم وها هو ذا يعيد عليهما أن يقفا وألا يدفعا بنوقهما إلى الأمام، وأن يشاركاه ما يجد من إحساس وشعور نحو هذه الديار، فقد دعته صواحبه ألا يأسف وألا ييأس ولكن أمر القيس برغم ذلك كله يبكي ويبكي فهو يجد في الدمعة التي تسيل على خديه متنفساً له من كربته ومفرجاً له من همه وغمه. ليبك إذن ما استطاع للبكاء سبيلاً، بل ما استطاع البكاء إليه سبيلاً؟، ولكنه لا يريد أن يبكي هو ويضحك صاحباه ولا يريد أن يحزن هو ويفرح صاحباه، فيدعوهما إلى الانتحاب.

ألا يحلو الانتحاب على الطلل الذي ذهب بعضه وبقى بعضه الآخر ألا يحلو على الطلل الذي ارتحل عنه الأحبة وقبع فيه خيال الأحبة نشيج البكاء ومسيل العبرات. أكبر الظن أنه يحلو فلندع أمريء القيس وصاحبيه يبكون ويقولون ما شاءوا من البكاء والعويل، ولننتهز هذه الفرصة لنحلل هذه الصور التي أتى بها امرؤ القيس لصاحبيه ولنا أيضاً.

صورة البكاء هذه الصور التي أتى بها أمرؤ القيس لصاحبيه ولنا أيضاً. صورة البكاء هذه صورة معتادة في الشعر الجاهلى ليست فيها جدة وليس فيها خلق. الشعراء الجاهليون يبدأون معلقاتهم أو قصائدهم بالبكاء على الديار في أكثر الأحايين اللهم إلا عمرو بن كلثوم الذي يبدأ معلقته بوصف الحمر ثم عاد بعد ذلك في بيت مصرع إلى النسيب وبكاء الديار.

ويزعم بعض الرواة أن هذا البيت المصرع هو مطلع المعلقة ولكني لم أكتب هذه الفصل لأتحدث لك عن عمرو بن كثلوم ومعلقة عمرو بن كلثوم فقد يكون لهذا كله فصل آخر إنما أكتبه لاتحدث عن معلقة امريء القيس، ولأبين لك أيضاً أن البكاء على الديار صورة معتادة في الأدب الجاهلي بل فيما بعد الأدب الجاهلى كذلك، فأبو نواس الذي لأم الشعراء لبكائهم على الديار قد بكى على الديار قبل ذلك، ويحضرني الآن مطلع قصيدة له أنشدها في حضرة البرامكة.

أربـع البلـي إن السـكون لبـادي   عليك وإني لم أخنك ودادي

فالصورة إذن صورة معتادة في الأدب الجاهلي قد أثقلتها هذه الأسماء التي كان يحرص على ذكرها العربي، بل التي ظل يحرص على ذكرها وذكر غيرها من الأسماء حتى العصر الحديث برغم أن الشاعر لم يكن قد رآها، إنما سمعها سماعاً فانطلق لسانه بالحديث عنها أو بالإشارة إليها ليحفظ بذلك طابع الشعر العربي.

رأى امرؤ القيس بين انتشار بعر الآرام وحب الفلفل بعض المشابه والملامح فساق هذا التشبيه في معلقته، ولست أدري هل كان هذا التشبيه حبيباً إلى نفس صاحبيه أم لا؟ ولكن الذي أدريه هو أني لا أعد لفظة الفلفل هذه لفظة شعرية رقيقة بأرق معاني هذه الكلمة، تحدث في النفس ما يحدث اللفظ الشعري من جمال وخيال.

ولكن الصورة التي أتت في أعقاب الصورة السابقة قد علتها مسحة من الجمال والخيال وهذه المسحة قد أتتها من أنها ليست صورة صامتة، إنما هي صورة متحركة تدفع فكرك إلى التصور والتخيل. فشبه امرؤ القيس نفسه بعد وداع صواحبه بجامع حب الحنظل من الحنظل، وشبه دموعه المنهمرة بدموع ذلك الرجل، فأنت إذ تذكر هذا تتصور إمريء القيس ينتقل من فاتنة إلى فاتنة، ينهمر الدمع عندما يسمع كلمته من هذه ويرقأ الدمع عندما يلمح بسمة من تلك، حتى إذا ما ودع أولئك الفواتن لم يملك جماع أمره ولا زمام قلبه ولا عنان دمعه فمضى يبكي غضبان أسفاً يسيل الدمع مدراراً على خديه، وأنت إذ تذكر هذا تتصور أيضاً جامع حب الحنظل ينتقل من شجرة إلى شجرة ورائحة الحنظل الحادة تستدر مذارف دمعه حتى إذا انتهى من عمله وتنقله، كثر الدمع في مآقيه وسال على خدوده، على حين أن امرأ القيس كان ينتقل بين غيد وملاح وحور حسان لا بين أشجار الحنظل، ولكن صورة دموع امريء القيس من فراق هاتيك الحسان الملاح رائعة حقاً بارعة حقاً كصورة دموع جامع الحنظل وهذا ما قصده الشاعر.

ويدعو امرؤ القيس صاحبه بعد ذلك إلى الوقوف ثم إلى البكاء كما قلت آنفاً، وهو لا يعمد في هذه الدعوة إلى تشبيه، وإنما هو القول يرسله إرسالاً، ولكن ماذا؟ لقد تركنا أمرأ القيس وصاحبيه يبكون ويعولون، ولعلهم الآن ضاقوا بالبكاء والعويل، وها هو صاحب امرىء القيس يذكره بأن حالة اليوم كحالة بل كعادته في ذرف العبرات على ديار أم الحويرث وجارتها أم الرباب في هذا المكان الذى يطلقون عليه "مأسل" ولكن ها هو ذا امرؤ القيس تهيجه الذكرى فيصور هاتين الفاتنتين وقد هبتا من مكانهما يفوح منهما عطر عبق جميل أو مسك شذى بديع فهو أشبه شيء بنسيم الصبا الوادع الناعم وهو يخطر على أشجار القرنفل فيحمل بين أعطافه فوح القرنفل العاطر ليعطر به الأجواء. ولكن نسيم الصبأ الذي يحمل بين أردانه عطر القرنفل قد غاب وكذلك صاحبات امرىء القيس قد غبن، وسكبت عينيه الدمع عشقاً وشوقاً حتى خضل الدمع نحره وفاض على المحمل الذي يعلق فيه سيفه.

وتغرب صورة أم الحويرث والرباب من ذهن امرىء القيس لتحل محلها صورة أخرى هي صورة يوم جلجل ذلك اليوم الذي عقر فيه العذاري الحسان ناقته فظل العذاري يتهافتن على لحمها الطري وشحمها الشهي الذي بدا كالحرير الأبيض المفتل، فيسجل امرؤ القيس هذا كله في بيت أو بيتين من الشعر حتى إذا ما انتهى من غذائه مضى على ناقته يضرب في الصحراء يجنح إلى هذه ويتشبث بتلك حتى وصل إلى عنيزه وسعى إليها في عقر دارها.

وها هي ذي تدعوه أن يمتطي معها ظهر ناقتها فيغتبط إمرؤ القيس بهذا ولكن ماذا؟ ها هي ذي عنيزة تداعب إمرأ القيس وتدعو عليه في رقة ودعابة ودلال أو تدعو له في رقة ودعابة ودلال، فهي تحبه وتوده قريباً منها لولا أن الناقة لا تستطيع أن تحتملهما فتدعوه إلى الهبوط حتى لا يعقر بعيرها كما عقر بعيره.

ولكن امرأ القيس كان ينعم برب عنيزة وأكبر الظن أن عنيزة كانت تنعم بقرب امريء القيس. والدليل على هذا هو أن امرأ القيس عندما دعاها إلى التخلي عن زمام الناقة صمتت ولم تتكلم. والمرأة عندما تصمت تريد كما يقول الفرنسيون وامرؤ القيس لم يشر إلى حديثها من قريب أو بعيد.

ماذا يقول امرؤ القيس لصاحبته يا ترى؟ ها هو يميل عليها ويهمس في أذنها فلنقف إذن عند الصور الرائعة والتشابه البارعة في أبياته السابقة.

امرؤ القيس يعقر للحسان ناقته وهذا ينم عن غنى وترف ويدل على كرم وسخاء، وامرؤ القيس يشبه شحم المطية بالحرير الأبيض المفتل وهذا يدل على غنى وترف وكرم وسخاء في التعبير والتصوير كذلك.

وامرؤ القيس يصور الهودج فوق الناقة وقد تطوح جهة اليمين تارة وجهة اليسار تارة أخرى وصاحبته تدعوه أن ينزل فلا ينزل ولا يجب أن

ينزل وهو يدعوها أن تقترب فلا تقترب وإن كانت تحب أن تقترب لولا أنها تملك زمام الناقة في يدها فيدعوها أن تدع هذا الزمام إن كان يمنعها من الاقتراب، وأن تدنو منه عله ينعم بجدها العاطر، وعله يجني من خدها وثغرها شيئاً كما يجني البستاني من روضه شيئاً!!.. وهذه الصورة جميلة ما فى هذا شك، تصور جمال البادية أبدع تصوير وتبين غزل البادية في أجمل بيان. لا تعجبك فحسب ولا تعجبني فحسب، إنما تعجب الأوروبيين والأمريكيين من السياح الذين يرتادون منطقة الأهرام ومنطقة الحفائر ويعجبون بالنوق والجمال ويحبون ركوبها حباً جماً مع صواحبهم وخليلاتهم.

وقد أنبأ امرؤ القيس صاحبته بما دار بينه وبين امرأة حبلى وبما كان من إقبالها عليه داخل الدار وامتناع غيرها عنه خارج الدار أو على سفح الكثيب بتعبير أدق وإمعانها في هذا الامتناع وتشلبثها بالقسم الغليظ. فهي واقفة على سفح الكثيب تدل وتمعن في الدل وتتأبى وتمعن في التأبي وامرؤ القيس يضرع إليها ألا تمعن في الدل ولا تسرف في التأبي فكأنه روميو عند شكسبير يناجي صاحبته جولييت وهي في الشرفة على حين أن صاحبه امريء القيس تأبى وصاحبة روميو ترضى وعلى حين أن صاحبة امريء القيس قد أخذها صاحبها إلى قمة الكثيب وصاحبة روميو قد سعى إليها صاحبها وهي في الشرفة. فيلح عليها امرؤ القيس ويرجو، ولكن صاحبته ترفض وتعرض، فيضيق امرؤ القيس بهذا الإلحاح وينفر من هذا الرجاء ويدعو صاحبته مرة أخيرة أن تكون مشفقة بقلبه عطوفاً على حبه ولكنها إن أعرضت في هذه المرة ورفضت دعوته وسخطت على

خلقه وسخرت من طبعه كان عليها أن تفرق ما بينهما من ود، وتشتت ما بينهما من شمل، ولا تدع الغرور يملأها لأنها ترى حبها في قلبه غائراً وطلبها منه مستجاباً.

ولكن صاحبته إزاء هذا كله تبكي بيد أنها لا تبكيخوفاً منه ولا رفقاً به إنما تبكي لتلهب جذوة الحب في قلبه، وتحرك لاعج الغرام بين جانحاته، ولكي تضرب من عينيها نظرات كالسهام لتصوبها إلى قلبه المفتت. فلنتركها تفعل ذلك مع صاحبها ولنحلل الأبيات السابقة ولنقف عند مواضع الجمال ومواطن الفتنة فيها.

صور امرؤ القيس نفسه مع المرأة الحبلى تصويراً فاحشاً فضاحاً لا أحب أن أشير إليه من قريب أو بعيد، إنما أحب أن أقف وأن تقف معي قليلاً عند التصوير الذي يليه وهو صورة صاحبة امرىء القيس وهي تتدلل عليه فيسوق إليها هذه الأبيات:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل	وإن كنت قد أزمعت هجري فاجملي
وإن تك قد ساءتك مني خليقة	فسلي ثيابك من ثيابي تنسل
أغرك مني أن حبك قاتلي	وأنك مهما تأمري القلب يفعل

ألا تجد في هذه الأبيات رنة موسيقية عذبة فهي حلوة الجرس حلوة المعنى تبعث على الترجيع، وتدعو إلى التوقيع، وتشبه المنظومات في تركيبها: ألا تجد في تشبيه امرىء القيس النظرات بالسهام تشبيهاً مصيباً بارعاً يصور البيئة العربية أصدق تصوير، ويعبر عن خصال العربي

أصدق تعبير. ولقد كثر في الشعر العربى تصوير النظرات بالسهام حتى العصر الحديث. فأنت إذا تصفحت ديوان شوقي ومطر أن قابلت هذا التشبيه مرات متعددة في مناسبات شتى.

وقد صور امرؤ القيس بعد ذلك موقفه مع صاحبه له سعى إليها والليل ساج وأنجم الليل قد انتثرت على صفحة السماء الزرقاء كالزبر جد والخرز الذي يزين الرداء ويفصل بين مقاطعه. سعى إليها في عقر دارها بينما ود الأحراس أن يقتلوه شر قتلة ويطردوه شر طردة وصور صاحبته كذلك في ثوبها الجميل الطويل الذي ينساب ذيله على الرمال فيمحو ما تركت أقدامها من أثر، وما خلفته من معالم تساعد على معرفة سبيلها وتتبع آثارها. وقد وصف امرؤ القيس صاحبته أوصافاً شتى فهي نحيلة الخصر ممتلئة الساق، وهي خفيفة اللحم والدم، بيضاء ليست برهلة وليست بمسترخية. قد التمع موضع القلائد في جيدها كالمرآة الصافية اللامعة. وصاحبته حينما تخفض وجهها عنه وتصرف نظرها عنه لا تطيق على هذا صبراً، إنما تلحظه بين الحين والحين وترعاه بنظرها كما ترعى المها أطفالها بنظراتها الفتانة الحنانة.

وليس من شك في أن امرأ القيس في كل هذه الأوصاف رجل عربي أولاً وقبل كل شيء، ينتزع أوصافه من بيئته التي يعيش فيها، إلى جانب أنه رجل مترف قد طوف في الآفاق فاتسع خياله وامتد أفقه الشعري، كما أن أبياته تدل على جرأته وإمعانه في طلب اللذة والسعي إليها والتعلق بها غير هياب ولا وجل، لا يحفل بالعواقب ولا يأبه بالنتائج.

ولست أدري هل كان امرؤ القيس صادقاً فيما ذهب إليه من قول أم لا؟ ولكن الذي أعلمه أنه كان رجلاً فاتكاً لا يتورع عن اقتراف المنكر زد على ذلك ما له من جاه وما له من عصبية ترهب منه القوم، وتخيف منه الأحراس، وتمهد له السبيل.

وقد وصف امرؤ القيس المرأة وصفاً مادياً وحاسياً، ولكن وضعه يوائم إلى حد بعيد ذوق الرجل العصري الذي لا يزال يحرص على دقة خصر المرأة مثلاً لمراقصتها في المراقص ومصاحبتها في المحافل، كما يحرص على امتلاء ساقها وخفة لحمها وما إلى ذلك من أوصاف.

وجملة القول أن هذه الأبيات في هذه المعلقة تعطينا صورة واضحة عن الغزل في الجاهلية كما تعطينا صورة من نفسية ذلك الملك الضليل الذى كان يومه خمراً وغده أمراً، وحتى احتدم عليه الأمر فقرح ومات.

ويرخى الليل سدوله على امريء القيس ويتقدم عليه شيئاً فشيئاً، فيمضي في الفلاة هيمان الخطى يبث الليل ما يعتلج في قلبه وما يجيش في صدره من عواطف ومشاعر. أرخى الليل عليه سدوله كموج البحر فبدا قلقاً ضجراً. أيصبر أم يقنط؟ أيفرح أم يحزن؟ كان امرؤ القيس أسرع إلى القنوط منه إلى الصبر وإلى الحزن منه إلى الفرح، فدعا الليل أن يسرع في سريانه والزمن أن يهرع في جريانه، ولكن امرأ القيس تصور أن الليل لا يقدم رجلاً إلا ليؤخر أخرى، ولا ينهض إلا ليهبط، ولا يرفع صدره إلا ليخفض صدره، ولا يأتي إلى وسطه إلى ليرجع إلى أوله،

فيدعوه امرؤ القيس أن تنجلي وأن ينقشع عن صبح باسم مشرق بهيج، ليس كهذا الليل تجمعت فيه الهموم وتكدست فيه الأتراح.

ولكن امرأ القيس يضرع إلى الليل وهو لا يسمع، فنجومه وقفت في السماء لا تتحرك ولا تنتقل كأنها قد ثبتت بفتل محكم إلى طود شامخ يرسخ في قلب الصحراء. ذلك الطود هو "يذبل"، وكأن هذه المجموعة من النجوم التي يطلقون عليها الثريا قد شدت بأمراس كتان إلى أحجار صخرية صماء، فهي لا تتحرك جهة اليمين أو جهة اليسار، ولا تتقدم إلى الأمام أو الخلف. ماذا؟ ها هي ذى النجوم الواقفة قد سارت، وها هي ذي الثريا الثابتة قد تحركت، وها هو الليل الهابط قد ارتفع، وانبثق أول خيط من خيوط الصباح، وانسكب النور على امريء القيس فغمره وهو يمضي في الصحراء رويداً رويداً.

فلندع امرأ القيس يمضى في الصحراء رويداً رويداً، ولنقف عند منابع الحسن وينابيع الجمال فيها، لا لشيء إلا لأنه قد وقف على معين من الماء يملأ قربته. ولا لشيء إلا لأننا نريد أن ننتهز هذه الفرصة لنعطي أبياته نصيبها من الحسن أو القبح.

تشبيه امريء القيس الليل بموج البحر تشبيه مبتدع مخترع، ولنعلم ابتداعه واختراعه يجب أن نتصور الصحراء المقفرة المجدبة التي لا تقع العين فيها إلا على الرمال الصفراء، والسماء الزرقاء، والنخيل الذي يضرب في عنان السماء، والبيوت الصغيرة، أو الخيام التي تضرب طنبها

في أديم الأرض، وتتصور بعد ذلك امرأ القيس يشبه الليل في هذه البيئة المحدودة بالبحر.

ليس من شك في أنك توافقني على أن هذا التشبيه مبتدع مخترع لأن امرأ القيس قد طوف في أقطار شتى وشاهد البحر فرسخت صورته في ذهنه حتى إذا ما عاد إلى وطنه دفع إلى هذا التشبيه دفعاً...

وصدقني أيها القاريء العزيز أني لا أذكر هذا البيت إلا والحظ على ثغري ابتسامة عريضة، أخاف أن تتحول إلى ضحكة عالية مدوية في أركان المكان، ولست أخاف أن أضحك لأن هذا البيت ضعيف حتى أنه يبعث على ابتسامة الرثاء، أو قبيح حتى أنه يدعو إلى ضحكة الاستهزاء، إنما ابتسم وأخاف أن أضحك لأني أذكر ما كان بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب بعد أن مات امرؤ القيس بأعوام طوال في ركوب البحر وغزو مصر. فالعرب يرهبون البحر. عمرو بن العاص كان لا يجد دافعاً لهذه الرهبة وعمر بن الخطاب كان يجد دافعاً لهذه الرهبة، فقام بين الاثنين نقاش عنيف وجدال صاخب. عمرو بن العاص يريد ركوب البحر ويغري الجيش على ركوب البحر، وعمر ابن الخطاب لا يريد ركوبه ويمنع الجيش في شيء من الحدة وشيء من العنف. ولم ينقذ عمرو من هذا الجدال إلا ذلك الوصف الأدبي الذى وصف به البحر وفيه أنه خلق كبير يركبه خلق صغير وما إلى ذلك، واستطاع أخيراً أن يأخذ السماح من عمر بركوبه مع من أراد من جنده، ولكن عدم ركوب البحر لا يمنع من معرفة البحر غير أن هذه المعرفة لم تكن إلا لهؤلاء الشعراء الذين طوفوا

في الآفاق، وجابوا شتى الأصقاع، وبلغوا السواحل والشواطيء، وعرفوا شيئاً عن التجارة بين البلدان.

وامرؤ القيس بعد ذلك التشبيه المبتدع المخترع يصور همومه وأشجانه التي ألقاها على الليل ليعلم هل ييأس أم يصبر وهل يتحمل أم لا يتحمل يصور حديثه مع الليل في أسلوب قصصي لطيف ظريف كأنه عمر بن أبي ربيعة وهو يسوق في أسلوبه القصصي الجميل شعره، ويصور امرؤ القيس الليل وقد هبط بثقله على الكون في معنى سهل رائع، وإن كان في مبنى صعب خشن، بيد أنه لا يلبث أن يسهل وأن يلين في البيت الذي يليه حين يدعو الليل إلى الانقشاع، والانقشاع الذييصحبه الصباح السعيد فيمضي المعنى والمبنى جميلين رائعين.

وتشبيه النجوم في ثباتها كأنها قد شدت بفتل إلى طود شامخ تشبيه مصيب كل الإصابة، يبين لهفة الشاهد الذى طال به الأرق على زوال الليل، ويبين ثبات النجوم في عينيه. وأنت تستطيع أن تقول هذا التشبيه كما قاله امرؤ القيس منذ قرون فتنال اليوم إعجاباً وتقديراً مستطاباً على شريطة أن تغير لفظة "يذبل" الغريبة على أسماع أبناء العصر الحديثة القريبة من أسماع أبناء العصر الجاهلي: بل إنى أذكر أنيقرأت لفيكتور هيجو الشاعر الفرنسي الرومانسي المشهور قصيدة فيها بيت بهذا المعنى يصور فيه الليل في التلال بين مونتليون وسانت لو في فرنسا. وكذلك أعتقد أن تشبيه امريء القيس للثريا تشبيه رائع ما في هذا شك، ولكن امرأ القيس انتقل بعد ذلك إلى وصف نفسه وهو يحمل قربته، أو

قربة صاحبه بتعبير أدق، ويمضي في رحلته عبر واد خال خاو كجوف العير الوحشى لا ينتفع به. ولكن ما هذا الصوت البشع المنكر الذي يأتي من بعيد فيسعى إليه امرؤ القيس ويسعى حتى يدنو منه...

ترى ماذا وجد امرؤ القيس. إنه ذئب يعوي كالرجل المقامر الذي يقامر مع أنه صاحب أسرة وصاحب أبناء. يسعى امرؤ القيس إلى الذئب غير هياب ويدور بينهما حديث عجيب.

امرؤ القيس لا يغني عن الذئب شيئاً والذئب لا يغني عن امريء القيس شيئاً. امرؤ القيس يطلب أمراً. والذئب يطلب أمراً. فلن ينفع أحدهما الآخر. ومن طلب من امريء القيس شيئاً لن يناله ومن طلب من الذئب شيئاً لن يناله فمن ابتغى من أحدهما مأرباً فقد تعب ومات هزالاً..!!

لنقف عند هذه الأبيات وقفة قصيرة، فقد زعموا أنها ليست لامريء القيس إنما هي لتأبط شراً أو الشنفري من صعاليك العرب، ونحن نرجح أنها ليست له، لما عرف به امرؤ القيس السؤدد والمجد. ولكننا ذكرناها في المعلقة حتى نحلل كل الأبيات التي تنسب إلى المعلقة، وعلى أية حال فالأبيات تدل على البؤس والفقر والشاعر يحمل على عاتقه قربة كأتباع وجوه القوم عند الرحيل، والشاعر يشبه الوادي القفر بجوف العير الوحشي الذي لا يجدي فتيلاً. والشاعر يعطينا فكرة جلية عن الصحراء وما فيها من حيوان كاسر جاسر كالذئب، وعن حياة

العرب بين خمر وقمر، والشاعر يصور الحديث الذي جرى بينه وبين الذئب في أسلوب قصصي لا يخلو من جاذبية، ويبين أنه لا يملك للذئب شيئاً كما لا يملك الذئب له شيئاً، مما يدل على الأثرة وينم عن القحط والجذب الذي يتمثل في الصحراء، والاستهتار الذي يتمثل في خلق كل منهما؛ لضياع كل ما يظفر به ويستحوذ عليه. وقد كتب البحتري في العصر العباسي قصيدة يصور فيها ما جرى بينه وبين الذئب تعد من روائعه وبدائعه، بل إن شعراء الغرب قد كتبوا في وصف ورثاء حيواناتهم قصائد شتى، فليس هذا الفن عبثاً أو طيشاً، وليس هذا اللون غريباً أو عجيباً، وتحضرني الآن قصيدة اللورد بيرون الشاعر الانجليزي الذائع الصيت يوجهها إلى كلبه الوفي الأمين.

لنرجع لامريء القيس وهو يغدو ممتطياً صهوة جواده الضخم ليدرك الوحوش ويقترب منها، أو يصبح قيد أنملة منها كما يقولون، أو يصبح بمثابة القيد منها كما يريد أن يقول امرؤ القيس: والطير لا تزال في أوكانها في قنن الجبال. ففرسه هذا يصلح للسكر ويصلح للفر، حسن الإقبال، حسن الإدبار إذا ما عدا بدا كأنه صخرة شماء قد حدرها السيل من القنن العالية، وفرسه هذا أملس الظهر، وعلى ضموره ونحوله إذا ما عدا جاش صوته كما تجيش القدور في غليانها. سهل سلس العدو كما يسح السحاب بالمطر في سهولة وسلاسة ويسر، على حين أن غيره من الأفراس تفتر قوتها، وينى عدوها، وتثير حولها نقعاً كثيفاً، وغباراً عنيفاً، وتركل بأرجلها ركلاً، إذا عدت فوق أرض غليظة. وفرسه سريع حتى أن الغلام الخفيف إذا امتطى صهوته سقط، والرجل العنيف إذا ما امتطى

صهوته لم يتمالك أن يصلح ثيابه ويعدل قوامه. وهو نشط سريع كالخذروف الذي يلعب به الصبي، فكأن له كشحى ظبي، وساقى نعامة، وكأن جريه جرى الذئب، وهبوبه هبوب ولد الثعلب، ولفرسه ذنب سابغ ضاف ينحدر بين رجليه لا على جانبيه، فإذا كان قائماً عند البيت غير مسرج لاح ظهره أملس كمداك العروس في صفائها وملاستها أو كالصلاية التي يعرض فوقها الحنظل فيلمع ويسطع.

والواقع أن هذه الصور التي أتى بها امرؤ القيس في وصف فرسه صور فيها كثير من الحركة والحياة، ففرسه يجيش دون أن يستحثه على الجرى، أو يقرعه بألهوب وهو سهل الحركة كما يسح الماء من السحاء في سهولة. والجواد حين يسقط الخفيف ويؤرجح العنيف يدفعنا إلى استحضار صور عدة ذكر لنا بعضها ودفعنا إلى ذكر البعض الآخر، فالجواد يعدو ويعدو، والغلام فوقه يحاول أن يأخذ سمته فوقه، ويحفظ اتزانه، فيقبض على زمامه ويشتد في قبضته، فلا يفلح في شيء من هذا، ولا يلبث أن يهوي على الأرض متدحرجاً، متحطماً، أو كالمتحطم، والجواد يعدو بالرجل الثقيل وهو يحاول أن ينصب قامته ويعدل أطراف ثوبه التي يجذبها الريح جذباً وتدفعها دفعاً، فلا يستطيع أن يفعل شيئاً من هذا. وقد أتى امرؤ القيس بعد ذلك بتشبيهات شتى لكشحي الفرس وظهره.

وأكبر الظن يا سيدي أنك ضقت بهذه الأوصاف التي لا نهاية لها، ولكن صدقني يا سيدي لو أن شاعراً صاغ هذه المعاني التي أرادها امرؤ

القيس في وصف حلبة من حلبات السباق في الجزيرة أو مصر الحديدة، أو نادي اسبورتنج في أسلوب سهل سلس واضح قريب الألفاظ، ما وجهنا إليه عبثاً، ولما وجدنا في شعره طعناً، وصدقني كذلك يا سيدي أن هذا ليس عبثاً أو ما يشبه العبث وليس لهواً، أو ما يشبه اللهو إنما هو جد أشد ما يكون الجد، لا في الأدب العربي فحسب بل في الأدب الأوروبي أيضاً. فقد فرغت منذ يومين من قراءة كتاب في صفات الجياد ألفه أحد الكتاب المحدثين في انجلترا في حوالي خمسمائة صفحة مزينة باللوحات والصور. كما نشرت جامعة القاهرة بحثاً ضخماً للدكتور. زاهر عن الأفراس العربية في مصر وأمريكا يباع بمائة وحمسين قرشاً.

أكبر الظن أننا تركنا أمرأ القيس بجانب فرسه عند البيت، فلنرجع إليه لأنه يتأهب أن يتمطى صهوته وينطلق عليه كالريح الهبوب ليستأنف صيده وطرده. وها هو ذا الفرس الآن يعدو ويجد في عدوه وها هو ذا امرؤ القيس يصيب القنائص التي يعدو خلفها بسهامه القاتلة، وها هي ذى الدماء تنزف من القنائص غزيرة النزيف، حتى تلطخ صدر الفرس وتخالط الدماء بياضه كأنها عصارة حناء.

ولكن ماذا؟ ما هذا الذي يبدو عند الأفق؟ أترى أنت شيئاً؟. إنني لست أرى الآن شيئاً، ولكن ها هو كل شيء قد وضح أمام عينيك وعيني، وها هو قطيع من البقر الوحشي تحوم نعاجه كما تحوم العذارى عند نسكهن، ولا يلبثن أن يتفرقن كقلادة الخرز الأبيض والأسود التي يتحلى بها الصبي الكريم الأعمام والأحوال. وها هو امرؤ القيس يرى كل

هذا فيهرع في عدوه حتى يبلغ أوائل هذا القطيع من بقر الوحش الذي لما تتفرق أواخره، برغم ما أحاطها من نقع وثار حولها من غبار.

ولكن ها هو ثور يدبر وها هي نعجة تدبر، وها هو امرؤ القيس يعدو بفرسه خلفها حتى يدركها، والفرس برغم هذا كله لا يكل ولا يتصبب عرقاً.

هل يكتفي امرؤ القيس بالعدو خلف القطيع دون أن ينتفع بشيء— أو يأكل شيئاً بتعبير أوضح من هذا القطيع؟ ليأمر امرؤ القيس الطهاة أن ينحروا ما شاء من الذبائح أو ما شاءواهم من الذبائح وليتركهم بين منضج اللحم وشاو له إن صح هذا التعبير.

فلنترك امرؤ القيس وطهاته الذين تركهم يطهون ما شاءوا أو شاء هو من صنوف الطعام ولنرجع لتحليل أبياته السابقة كعادتنا.

تشبيه الدماء بعصارة الحناء تشبيه مستمد من التجارة الجاهلية بين البلدان، فقد كان العرب يتجرون كثيراً بهذا العرض من عروض التجارة. فأنا استسيغ التشبيه من هذه الناحية ولا أستسيغه من ناحية أخرى لأنه يذكرني بالمقعدات والعجائز وهن يصبغن شعورهن بعصارة الحناء والجواد في هذه الحال مثلهن وهذا ينتقص من قوته ويقلل من فتوته...

والتشبيه بالحناء أو عصارة الحناء قد يكون طريفاً بالنسبة إلى الأدب الجاهلي ولكنه لا يوجد اليوم في الشعر العربي، أو هو قد بطل

في الشعر العربي كما بطل عند الطبقات الراقية، فقد كانت العروس قديماً تحلي يديها بالحناء أما اليوم فقد بطل هذا التقليد وأصبح من مخلفات العصر القديم وآيات التأخر وعدم مجاراة الحضارة الحديثة.

على أن تشبيه البقر الوحشي بسر العذارى تشبيه رائع كل الإبداع، رائع كل الروعة فقد وضع هذا الضرب من الحيوان في منزلة الإنسان وأي إنسان؟

فشبهه بالعذارى الحسان وهن يحمن حول نسك من الأنساك وقد تحلين بملاءات مختلفة الألوان. هذا تشبيه يلائم روح العصر أو قل المشبه به يلائم روح العصر بتعبير أدق فأنت تستطيع أن تتصور موكباً نم الغيدأ وثلة من الحسان وقد أمسكت كل واحدة منهن في يد صاحبتها، وحمن في حلبة من حلبات الرقص، أو درن في حلبة من حلبات الانزلاق– أو الباتيناج كما يقول الرنجة– أو على مسرح من مسارح باريس، أو علب الليل كما يقول الفرنسيون أو على شاشة هوليود البيضاء كما يحب أن يقول الأمريكيون. بينما أخذت إحداهن ترقص في وسط هذه الحلقة من الحسان لتكسب المنظر جمالاً على جمال وبهاء فوق بهاء، والحسان أثناء ذلك يرتدين أثواباً تنكرية طوالاً، يجتمعن ثم يتفرقن كما يتفرق الخرز في قلادة من القلائد يتحلى بها جيد صبي كريم الأعمام والأخوال.

وعليك أن تتصور تشبث العرب بالأنساب وتحمسهم للأحساب لنتصور منزلة هذا الصبي بين قومه وجمال القلادة في عنقه.

وعدم تفرق أواخر القطيع مع أن إمرأ القيس أجرك أوائله دليل على استيلاء امريء القيس عليها وأخذه لها. وعدم انصباب العرق من الفرس دليل على سرعة الفرس حتى أنه وصل إلى ما يريد أن يصل إليه قبل أن يدخل في مرحلة التعب والعرق.

أما البيت الذي يصور ما يفعله الطهاة فدليل على ثراء امريء القيس وتفننه في صنوف الطعام. فامرؤ القيس لا يطهي بنفسه إنما يطهي له غيره، ويطهي له طهاة لا طاه واحد ويطهون صنوفاً شتى لا صنفاً واحداً، مما يدل على وفرة الصيد والتعود على الثراء في الغذاء...

أكبر الظن أن الطهاة قد فرعوا من طهيهم، وامرؤ القيس قد فرغ من طعامه، فنمض إليه الآن فما كنا نحب أن نلحظه وهو ياكل بل كنا نحب أن نقترب من طهاته وهم يطهون حتى تحن بطوننا ويسيل لعابنا لرائحة شوائه. أكل امرؤ القيس حتى شبع وما أجدره أن ينظر إلى الفرس الذي هيأ له الأكل والشبع نظرة إعجاب... وها هو ينظر إلى الفرس ويطيل النظر، يرفع بصره تارة ويخفض بصره تارة أخرى حتى يستتم النظر إلى جميع جسده. وهبط الليل على امريء القيس وفرسه فبات الفرس وسرجه ولجامه عليه وبات امرؤ القيس وفى عينيه خيال من الفرس حاضر جاثم غير مهمل أو فى غفلة عنه.

والأبيات تمثل إعجاب العربي بفرسه واعتزازه به وحرصة عليه تمثيلاً صادقاً ليس فيه تكلف أو تجاوز. ماذا؟ الدنيا تصخب. والطبيعة تتقلب، فتدفع إمرأ القيس أن يحول نظرات الإعجاب من فرسه إلى السماء ولكن ماذا في السماء؟ إن السحاب يرعد، وإن البرق يلتمع بين أكاليل السحاب كما تلتمع اليد إذا ما أخرجت من الجيب بيضاء من غير سوء... ويضيء البرق كما يضيء مصباح الراهب الذي لا تخبو جذوته ولا تخمد وقدته.

وامرؤ القيس وصحبه أثناء ذلك ينظرون ويمعنون النظر ويتأملون ويبعدون التأمل، حتى ينهمر المطر انهماراً، وحتى يعلو الجبل وينحدر ذات اليمين وذات اليسار حتى يوشك أن يهدم ذلك الستر الذي أقامه امرؤ القيس وصحبه بينهم وبين السيل، وحتى يخر دوح الكهنبل على أعناقه أو أذقانه من شدة الانهمار وحدة التيار، وحتى تنزل الوعول المعتصمة بقمم الجبال إلى الوادي لأنها لا تستطيع أن تصمد أمام عنف السيل وحتى يدرك المطر والسيل قرية تيماء فيجرف جذوع النخل ويهدم البيوت المستقفة، ولا يبقى ولا يذر شيئاً، اللهم إلا البيوت المشيدة بالجص القوي.

يحدث كل هذا أمام عيني امريء القيس وصحبه بينما يبدو جبل يثير وقد حفه الماء والغثاء كرجل شيخ تزمل برداء مخطط، وبينما يبدو جبل طمية في أرض المجيمر يدور حواليه الماء والغثاء كفلكة المغزل التي يغزل بها العربي الصوف وبينما تبدو الصحراء المنخفضة وقد وصل

إليها الماء والغثاء فخرج النبات منها مختلفاً ألوانه كثياب الرجل اليماني المختلفة الألوان. وترى الأطيار والعصافير كل هذا فتنهل من الماء ما طاب لها الانتهال، وتغني ما طاب لها الغناء وتحلق بين الأجوا سكارى كأنها ارتوت براح حادة ألقيت فيها ضروب من التوابل، ويدرك الزبد والماء والغثاء كل شيء حتى السباع يدركها الغرق فلا يبدو منها إلا أطراف ضئيلة كأنها عروق الأبصال.

هذا الجزء من المعلقة الذي يصور فيه امرؤ القيس الطبيعة وما أدركها من تحول وتغير من أجمل أجزاء المعلقة ويربو في جماله عندي عن الجزء الذي سبقه في وصف الفرس والحق إني أشعر نحوه بشعور خاص لا أستطيع أن أتبين مصدره ومبعثه هو أن هذا الجزء يصور الطبيعة الصامتة، والجزء الذي سبقه يصور الفرس. وأنا أحب السماء والجبال والمياه أكثر مما أحب الفرس وليعذرني عشاق الجياد في هذا. ولكن ليعلم هؤلاء وغير هؤلاء أن تشبيه لمعان البرق بلمعان اليد الخارجة من الجيب تشبيه ساحر، فاليد أكثر حركة وأنصع وأسطع أزاء الجسم التي تقع عليها العين وقد قالوا في حلكة الظلام إن الإنسان إذا ما أخرج يده من جيبه لم يكد يراها من نصاعتها ولمعانها. وتشبيه امريء القيس للبرق بمصباح الراهب الذي لا يعرف منه صوناً ولا يلقي منه عزة تشبيه رائع كذلك. أكبر الظن أني لست في حاجة إلى سرد روعته بعد الذي ذكرته آنفاً.

والبيت الذي يصور تأمل امريء القيس بيت بسيط يسير، صيغ في أسلوب واضح غير مستغلق على الأفهام أو ناب في الأسماع، لولا أن بعض أسماء الأماكن تضخمه تضخيماً وترده إلى العصر الجاهلي رداً سريعاً. وتصوير المطر وآثار المطر في أبياته يبدو كأنه تصوير سينمائي قد أبدع المصور في تصويره وتفنن المخرج في إخراجه. فسيل المطر ينحدر جهة اليمين وجهة اليسار، وسيل المطر يندفع اندفاعاً، ويسقط الأدواح على أذقانها ويرهب الوعول المعتصمة بأعالي الجبال فتنفر إلى بطن الوادى، ويأتي على المدائن فيخرب بيوتها الخرعة ويبقى بيوتها القوية ويأتي على الصحراء المجدبة القاحلة فينمو النباب مختلفاً ألوانه.

كل هذه صور جميلة، تمر سراعاً تباعاً كأنها شريط سينمائي جميل لولا أن امرأ القيس أخطأ في تصويره أو في إخراجه حينما جعل النبات ينمو سريعاً ويشب ويترعرع، ويبدو كأثواب الرجل اليمانى ولم يمض على انسكاب الغيث إلا أمد وجيز،

وكم أحب أن تمهل معي هذا الشريط السينمائي– إن قبل رواد الأدب الجاهلي هذا التعبير وتمعن النظر معي في هذه الصورة أو هذه اللفظة على حد تعبيرهم لفظة الجبل الشامخ السامق الذي انبثت القرى والمدائن بالقرب منه واكتنفه الماء والغثاء من كل صوب لا يفك حصاره عنه إلا ليضيق حصاره عليه ولا يبتعد عنه إلا يقترب منه فكأنه كبير أناس متدثر بثوب مخطط. فالجبل كبير عظيم قد رقدت القرى والمدائن بالقرب منه والرجل كبير عظيم قد التف الناس حواليه، والمياه حول

الجبل عنيفة دائرة، والثوب حول الرجل مطوي، والخطوط دائرة. وكم أحب أن تمهل معي هذا الشريط السينمائي، وتمعن النظر معي في هذه اللفظة كذلك، لفظة الجبل الآخر والأمواج تحفة والدوامات تدور حوله وتدور فيبدو كفلكة المغزل عندما تدور وتدور ولو أن شاعراً وصف اليوم جبلاً من الجبال قد حف به الماء وانهمر منه السيل هذا الوصف الذى صاغه امرؤ القيس منذ قرون، لما وجدنا في وصفه ضيقاً ولا حرجاً إنما وجدنا شيوعاً وتعميماً يلائم كل عصر.. وإن كنا نجد في فلكة المغزل والرجل اليماني وصحراء الغبيط ويثبر والمجيمر ألفاظاً إقليمية محصورة على زمان معين وهو الزمان الجاهلي وعلى مكان معين وهو المكان الذي حدث فيه المطر وانهمر منه السيل وتصوير المكاكي بالسكاري تصوير جذاب خلاب: فالطير تترنح في الفضاء وتتغنى في الأجواء عندما تشهد الخصب وتحس المطر وتشبيه أطراف الأسود بأنابيش العنصل تشبيه إقليمي لا يخلو من جمال كما لا يخلو من فظاظة في الألفاظ في لفظ أنابيش وهي الأطراف، أما العنصل فهو نوع من الأبصال.

إلى هذا الحد يحسن أن تنتهي من هذه الصور الطريفة وقد تسألني ما الذي دفعك أن تلجأ إلى هذا الأسلوب؟ فأقول: إن الذي دفعني إليه وهو أثر القصص في النفس وسحره في القلب وقد تسألنى أين المعلقة؟ فأقول: إنها في مشروع التبريزى وغير التبريزى وما أحببت أن أنسخ لك شعراً إنما أحببت أن أسوق إليك وأن أعرض عليك المعلقة في صور خاطفة سريعة.

ابن المقفع

نشأته وبدء شهرته

هو عبد الله بن المقفع كاتب عربي فارسي الأصل مشهور. وكان "المبارك" والد "عبد الله بن المقفع" من مجوس المدينة "جور" في بلاد فارس، تولى بعض أعمال الخراج "للحجاج بن يوسف الثقفي أيام إمارته على العراق وبلاد المشرق، فمد يده– فيما قيل– إلى أموال السلطان، فضربه "الحجاج" ضرباً مبرحاً حتى تقفعت يده، فسمى بـ"المقفع".

وهناك رواية أخرى تقول إنه "المقفع" بكسر الفاء المشددة، لأنه كان يعمل "القفاع" ويبيعها والرواية الأولى هي المشهورة بين العلماء.

ولد المقفع "عبد الله"، وكان اسمه أولاً "روزبة" ويكنى "أبا عمرو" في مدينة "جور" على الأغلب. ولم تبلغنا أخبار "ابن المقفع" إلا مضطربة مقطعة الأوصال، وجيزة إلى حد يصعب معه تتبعه في مختلف مراحل حياته، وجل ما عرف عنه أن حياته مرحلتان:

١– مرحلة أموية: دامت نحواً من خمس وعشرين سنة، وهي مرحلة التحصيل والتأمل والمراقبة.

٢– مرحلة عباسية: دامت نحواً من عشر سنوات، وهي مرحلة الإنتاج الفكري.

وكما نحن في شك قليل من سنة مولده، لا نعلم بالتحقيق أين تلقى تعليمه الأول: في "جور" أم في "البصرة" والأرجح أنه كان في "جور" إذ من الصعب أن يثقف الثقافة الفارسية التي تثقفها في "البصرة" وهي المدينة العربية بكل مناحيها. والأرجح أنه كان في فارس إلى جانب أبيه، يسعى في تحصيل الثقافة الفارسية، ثم توطن والده "البصرة" وكانت مجمع رجال العلم والأدب، وفيها "المربد" منتدى الأدباء والشعراء بعد أن أصبح "عبد الله" يافعاً.

ولنا أن نقول إن "البصرة" كانت موطن درسه، ومدينة "جور" مسقط رأسه وقد أخذ الفصاحة عن "أبى الجاموس ثور ابن يزيد الأعرابي" كما اتصل "بآل الأهتم" وهم أهل فصاحة ولسن، فكان مولى لهم. يغترف من بلاغتهم، ويتصل بالأعراب، ويقوم لسانه على نطقهم، فأحبهم كأنه أحد أبنائه. وقد روى "أبو العيناء الهاشمي" عن "القحذمي" عن "شبيب بن شيبة" قال: "كنا وقوفاً بالمربد، وكان المربد مألف الأشراف إذ أقبل "ابن المقفع" فبشِشنا به وبدأناه بالسلام فرد لعينا السلام ثم قال: "لو ملتم إلى دار "نيروز" وظلها الظليل، وسورها المديد، ونسيمها العجيب، فعودتم أبناءكم تمهيد الأرض، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل، فإن الذين تطلبونه لم تفلتوه، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه" فقبلنا وملنا. فلما استقر بنا المكان قال لنا: "أي الأمم أعقل؟" فنر بعضنا إلى بعض،

فقلنا لعله أراد أصله من فارس، فقلنا "فارس" فقال: "ليسوا بذاك، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيماً من الملك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عقد الأمر، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم". قلنا الهند قال أصحاب فلسفة قلنا "السودان" قال: "شر خلق الله" قلنا "الترك" قال: "كلاب مختلسة" قلنا: "الخزر" قال: "بقر سائمة" قلنا: "فقل" قال: "العرب" فضحكنا. فقال: اما أني ما أردت موافقتكم، ولكن إذ فاتني حظى من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة. إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها، وآثارت أثرت: أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم، يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسن ما يشاء فيحسن، ويقبح ما يشاء فيقبح.. أدبتهم أنفسهم، ورفعتهم همتهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزل حياء الله فيهم وحياؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر، على الخير فيهم ولهم. وقال تعالى "إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين". فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان".

ومهما يكن نصيب هذه القصة من الصدق أو الكذب، ومن الحق أو الاختلاف، فإنها لا تمنعنا من ان نقول إن "ابن المقفع" كان يتعصب للعرب ويعتقد أن أعجب الشعر هو ما صدر عن غلام بدوى لم ير ريفاً، ولم يشبع من طعام، بل يأوى إلى القفر ويتبع اليرابيع والظباء.

وهكذا تعلم العربية، وتدرب على أساليب الفصاحة والبلاغة، واجتمع له عاملان هامان: عامل الثقافة الفارسية، وفيها ثقافة اليونان والهنود. وعامل الفصاحة العربية.

فقابل العالم الجديد بسلاحين قويين: سلاح الفكر، وسلاح اللسان. وما هو إلا زمن قصير حتى طار للشاب الفراسي صيت في العلم والفصاحة. وكان الأمويون من أشد الناس التجاء إلى الموالي فلجأوا إلى "ابن المقفع" فكتب إلى عمر بن هبيرة في دواوينه على كرمان، ثم كتب من بعده إلى ابنه الآخر "داود" ولما قامت الدولة العباسية كتب إلى عيسى بن على ابن عم المنصور وعلى يديه أسلم وتسمى "عبد الله" واستمر يعمل عنده.

وهكذا شهد "ابن المقفع" عن كثب كيف انهارت الدولة الأموية، واطلع على السعايات والمؤامرات، وعرف كيف تنقلب الأيام وتدول الدول، وعرف الأدواء الخفية والظاهرة التي تفتك بجسم الأمم، وكان أبداً عيناً ترى وأذناً تسمع، وقلما يسجل، ولساناً ينطق.

كما ساهم ابن المقفع في النهضة الثقافية في عصره حتى سعى الوشاة لدى اللخيفة ضده فانقلب عليه وقتله في نهاية الأمر.

أخلاقه وزندقة

(أ) أخلاقه: عاش "ابن المقفع" عيشة موسرة مترفة، فلم يكن يشكو الفقر ولا الخصاصة ولم يذق لوعة الحرمان، ولذلك انعكست هذه الصفات على حياته وأخلاقه. وقد قال فيه من ترجموا له: "أنه كان سرياً سخياً، يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه". وقالوا: "إنه لم يبق في الإسلام من أهل فارس شريف يذكر إلا أن يكون "عبد الله بن المقفع" و"الفضل بن سهل".

وقد كان "ابن المقفع" يبذل ما له لمن يحتاج إليه، ويحرص على الصداقة ويتجافى عن الحسد والرياء، ويتمتع بمباهج الحياة، ويرسل النفس على سجيتها بين إخوانه: ومما روى في ذلك: أنه بلغ "ابن المقفع" أن جاراً له يبيع داراً له لدين ركبه، وكان يجلس في ظل داره فقال: ما قمت إذن بحرمه إذا باعها معدماً وبت واجداً، فحمل إليه ثمن الدار، وقال: "لا تبع" وقال سعيد بن مسلم: "قصدت الكوفة فرأيت "ابن المقفع" فرحب بي وقال: "هل رأيت أحداً؟" قلت: رأيت "ابن شبرمة" فوعدني أن أكون مربياً لبعض أولاد الخاصة، فقال: "أف! أيجعلك مؤدباً في آخر عمرك؟ أين منزلك؟" فعرفته، فأتاني في اليوم الثاني وأنا مشغول بقوم يقرأون على فوضع بين يدي منديلاً، فإذا فيه إسورة مكسورة، ودراهم متفرقة مقدارها أربعة آلاف درهم فأخذت ذلك ورجعت به إلى البصرة واستعنت به".

وقيل إنه لما قتل "مروان بن محمد" آخر خلفاء بني أمية، استخفى "عبد الحميد بن يحيي" و"عمارة بن حمزة" فعثر عليها في الجزيرة عند "ابن المقفع" وكان صديقاً لهما وفاجأهما الطلب وهما في بيته فقال الذين دخلوا: "أيكما عبد الحميد؟" فقال كل واحد منهما "أنا"، خوفاً على صاحبه، إلى أن عرف "عبد الحميد" وسلم إلى السفاح عبد الجبار.

وهذه القصة تدل دلالة واضحة على أن "ابن المقفع" كان رجلاً يغيث الملهوف وينقذ المكروب ويضحى بروحه، في أحرج الأوقات وأعتم المواقف، من أجل أصدقائه.

وكذلك كان ابن المقفع رقيق النفس رقيق العواطف، يلبس لكل حالة لبوسها؛ ومما يدل على ذلك أنه دعى ذات يوم إلى مائدة عيسى بن على للغداء فقال: "أعز الله الأمير، لست اليوم للكرام أكيلاً. فقال له: ولم؟ قال: لأنى مزكوم والزكمة قبيحة الجوار، مانعة لعشرة الأحرار".

وهذا يدل على أنه لم يكن يحب أن يكون ثقيلاً على مضيفيه منفراً لهم، مسبباً للسخط عليه وللامتعاض منه، وهذه سمة كل أديب مرهف الحس.

كما كان يعشق الجمال، ويهوي الطرب ويشرب نبيذ العراق الذي أحله بعض الفقهاء وقال في ذلك شعراً منه:

سأشرب ما شربت على طعامي   ثلاثاً ثم أتركه صحيحاً

فلســـت بقـــارف منـــه أثامـــاً ولسـت براكـب منـه قبيحـاً

وهكذا اجتمعت له صفات قلما تجتمع في إنسان واحد، بل إن بعض تلك الصفات يكفي لكي يجعل من الشخص رجلاً مثالياً، فما بالك بكل الصفات وقد اجتمعت في "ابن المقفع".

(ب) زندقته: وقد جمع هذا العصر بين الإيمان والزندقة، وبني الترف والفقر، وبين الأبهة والجلال والمسكنة والذلة. فكان فيه كثير من المتناقضات... فبينما يوجد شعراء يتغنون بذكر الخمر ويترنمون بذكر الأقداح، وهي تمر في المجالس، نجد شعراء آخرين تبتلوا، وتعبدوا. وذكروا الله، وتنسكوا واعتقدوا أن كل نعيم في الحياة زائل، وأنهم لابد أن يصبروا، ويصابروا، ويترفعوا عن ملذات الحياة ونعيمها، وينظموا الشعر في الزهد والورع والنسك.

وقد اختلف الباحثون في تفسير كلمة "زندقة" فمنهم من كان يرى الزندقة التهتك والاستهتار والفجور، ومنهم من كان يرى اتباع دين المجوس وخاصة دين "مانى" مع التظاهر بالإسلام أو مع عدم التظاهر به، ومنهم من كان يراها الإلحاد كالذي يحكيه المقري، ثم توسعوا في مدلول الكلمة فأطلقوها على الإباحي والملحد الذي لا دين له. والواقع أننا لو أردنا أن نتبين ما إذا كان "ابن المقفع" زنديقاً أم لا لوجدنا مدلولات كلمة "الزندقة" مطاطة غير محددة لا نستطيع ان نصل إلى تعريف جامع مانع لها.

ويقول "أبو الفرج الأصفهاني" صاحب "الأغاني" "أن يونس ابن أبي فروة" و"حماد عجرد" و"الزبرقان" و"عمار بن حمزة" و"يزيد بن الفيضي" و"جميل بن محفوظ" و"بشار المرعث" و"أبان اللاحقي" و"ابن المقفع" كانوا ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر، ولا يكادون يفترقون ويهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً، وكل منهم بدينه.

ونحن لا نستطيع أن نقبل كلام "الأصفهاني" لأول وهلة، إنما لابد أن نضعه على بساط البحث والتدقيق والتحقيق... إن هذه الرواية هي رواية صاحب الأغاني عن "الجاحظ" في اتهام أهل هذا المجمع بدينهم، ولعل ذلك كان من "ابن المقفع" قبل أن ينتحل الإسلام وإذا أضفنا إلى ذلك أن الاتهام بالزندقة والمروق على الدين كان من الظواهر الملحوظة في تاريخ الإسلام، وكان من الحجج التى يستند إليها الأنراء أو الخصوم في سبيل الانتقام من أفراد معينين لدى الخلفاء أدركنا أن "ابن المقفع" قد يكون ضحية من هذه الضحايا. ولو أننا أنعمنا النظر فيما كتبه، لأدركنا أنه لم يكن زنديقاً البته، وليست هناك سمات بارزة أو غير بارزة في مؤلفاته يتضح منها زندقته، ولو كان زنديقاً بهذا المعنى لا نتقم منه الخليفة "المنصور" في باديء الأمر دون تلكؤ، ودون تأخير.

وقد قيل إن "ابن المقفع" عارض القرآن كما قيل كذلك أنه تاب وأناب.

وكل هذه الأخبار متناقضة كما أن كل هذه التهم لم تكن تخص "ابن المقفع" بمفرده إنما كانت تخص أفراداً كثيرين ممن كان لهم نفوذ أو شهرة يخشى منها الخصوم.

وقيل إن ابن المقفع مر ببيت نار المجوش بعد أن أسلم فقال متمثلاً:

يا بيت عاتكة الذي أتغزل   حذر العدا وبك الفؤاد موكل

إني لأمنحك الصدود وإنني قسما إليك مع الصدود لأميل

وإن إسلامه لم يكن إلا إسلاماً صورياً. وهذه الأقوال أيضاً ربما تكون أقوالاً مختلفة أريد بها إكمال الصورة للانتقام من "ابن المقفع".

ولو أننا قلبنا صفحات مؤلفاته، وتمعنا في محتوياته، لأدركنا أنه أديب مرهف الحس: ليس فيه تمرد وليس فيه طيش وإنما هو رجل يقدر الأساليب الصحيحة السليمة في الحياة الدنيا التي تؤدي إلى لجنة في الحياة الأخرى. بصرف النظر عن أن يكون معتنقاً لدين معين من الأديان لأن جوهر الأديان كلها الإيمان، في الإسلام وغير الإسلام على حد قوله: فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب وتجنب الكبائر وتؤدي الفريضة... فألزم ذلك لزوم من لا غناء عنه طرفة عين، ومن يعلم أن من حرمه هلك، ثم أن قدرت أن تجاوز ذلك إلى النفقة في الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل".

وكأنى "بابن المقفع" يدافع عن نفسه بتلك الحكم الذائعة بين الناس:

"المصيبة العظمى الرزية في الدين"

"طوبي لمن ترك دنياه لآخرته"

فهذا الذي ذكرته، اعتقد أنه كاف للرد على من يهتم "ابن المقفع" بالزندقة.

مصرعه:-

وقد اتخذ "المنصور" من بعض أخبار الناس عن "ابن المقفع" تكأة للانتقام منه وقد اتفقت لذلك عوامل شتى، منها: أن "ابن المقفع" كان يكتب "لعيسى بن علي" فأمره بعمل نسخة للأمان "لعبد الله" فعملها ووكدها، واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيها، غير أنه دس لدى "المنصور" بعض عبارات جاءت في هذا الأمان كقوله: "وإن أنا نلت "عبد الله بن علي" أو أحداً مما أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير أو وصلت لأحد منهم ضرراً، سراً أو علانية، على الوجوه والأسباب كلها تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيل... فأنى نفى من "محمد بن عبد الله" ومولود لغير رشدة، ولقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين، ولا عهد ولا ذمة، وقد وجب عليهم الخروج عن طاعتي وإعانة مدناً وأني من جميع الخلق".

ومن الأسباب أيضاً تغزله في بيت نار المجوس. أما الثابت فإنه قتل على الزندقة التي اتهم بها ظلماً.

فلما تجمعت لدى الخليفة "المنصور" تلك التهم أمر "سفيان ابن معاوية" وإلى البصرة من قبله بأن يقتله، فقطع جسده أرباً أرباً وطرحه في التنور، فكانت كلماته الأخيرة:

"والله إنك لتقتلني بقتلي ألف نفس، ولو قتل مائة مثلك لما وفوا بواحد ثم قال:

إذا ما مات مثلي مات شخصي يمــوت بموتــه خلــق كثيــر
وأنت تموت وحدك ليس يدري بموتك لا الصغير ولا الكبير

ثم فاضت روحه.

أسلوبه وآثاره الأدبية:-

(أ) أسلوبه: يعتبر "ابن المقفع" من أئمة الناقلين من الآداب الأجنبية إلى الأدب العربي. ورغم أن ثقافته الأجنبية كانت تسيطر على عقليته وشخصيته سيطرة ملحوظة، فإنه حاول أن يكتب بلسان عربي مبين. وكانت له في البلاغة آراء قيمة لا نزال نذكرها حتى اليوم، وكان يقول لأجد أتباعه:

"إياك والتتبع لحوشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكبر".

وقال لآخر: "عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة". وقال: "البلاغة إذا سجلها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها". وهذا التعبير الأخير يساير الرأي الحديث بأن البلاغة هي الكلام السهل الممتنع الذييتصور الإنسان أنه يستطيع أن يأتي بمثله، ولكنه لا يقدر على ذلك إذا أمسك القلم، وحاول أن يسطر أفكاره وكان يقول: إن خير الأدب ما حصل لك ثمرة وبان عليك أثره

. وسئل: ما البلاغة؟ فقال: "اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون خطباً ومنها ما يكون رسائل... والإشارة إلى المعنى والإيجاز، عن البلاغة".

وكان ينصح الكتاب بأن يلبسوا لكل حال لبوسها، فلكل مقام مقال ولكل مقال مقام أو نحو ذلك، ويقول: إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقال، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضى الحاسد والعدو فإنهما لا يرضيهما شيء، ورضى جميع الناس شيء لا تناله، ويقال: رضى الناس شيء لا ينال".

ولم يكن "ابن المقفع" يتعمد السجع تعمداً في أسلوبه، إنما كان يلجأ إليه ليحلي كلامه ويزين أسلوبه دون أن يشوه المعنى، ويفسد الغرض المطلوب من الفكرة، وكان يتوخى اختيار الألفاظ العربية الفصيحة حتى لا يكون غير ذلك مدعاة إلى الطعت في كتابته وأدبه، ولذلك كان أسلوبه يجمع بين الجزالة والوضوح والإيجاز الذي كان يحرص عليه حرصاً تاماً، فلا يلجأ إلى الإفاضة والإسهاب في غير موضعهما، ولذلك وجدنا كل سطر من سطور "ابن المقفع" يضم بين أكنافه حكمة غالية وموعظة حسنة تختلف عما سبقها من حكم، وتأتي في كتابته كالدرر اللامعة المتألقة وكان يرتفع في أسلوبه عن السوقي من الألفاظ والحوشي من الكلمات.

ولكننا ينبغي أن نضع أمام أعيننا أولاً وقبل كل شيء أن "ابن المقفع" مترجم، فإذا وجد بعض الهنات في أسلوبهه فإن هذا يعزي إلى الترجمة فلنعذره إذا وجدنا بعض الغموض فى تراكيبه أحياناً مثل قوله في "رسالة الصحابة": "ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند، ألا يولى أحد منهم شيئاً من الخراج، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة، ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم، لأنهم أهل (ذاك) ودعوى بلاء، وإذا "كان" جلاباً للدراهم والدنانير اجترأ عليها" فأنت تراه يقول: "لأنهم أهل ذاك" وكان أولى أن يقول "لأنهم أهله" وقد أعاد الضمير في الجملة الأخيرة مفرداً وكان حقه أن يكون مجموعاً.

وأنظر إليه في "الأدب الصغير": "يبلغ المرء مبلغ الفضل في كل شيء من أمر الدنيا والآخرة حيث يؤثر بمحبته، فلا يكون شيء أمر ولا أحلى عنده منه" فقد أعاد الضمير في كلمة "منه" إلى الإيثار المفهوم من الكلام، وواضح أن ذلك يؤدي إلى الغموض في التعبير، لأن القاريء لا يفهم ماذا يريد "ابن المقفع" وهو إلى ذلك كان يكثر من الضمير المنفصل كقوله في الأدب الصغير أيضاً: "من جعل الرأى ديناً فقد صار شارعاً، ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له".

على أننا لا نحاول بذلك أن نحط من شأن "ابن المقفع" في تاريخ النثر العربي لأنه كان مأخوذاً بالدقة فيما ترجم. ويكفي أن صاحب "الفهرست" عده من البلغاء العشرة الأول الذين يقومون على رأس أدباء العصر العباسي وكتابه.[1]

والواضح أن "ابن المقفع" كان يتعب في صنعته كثيراً، كمايقول الدكتور شوقي ضيف ومن ذلك أنه كان يقف كثيراً إذا كتب، فقيل له في ذلك فقال: "إن الكلام يزدحم في صدري فأقف لتخيره".

ولكنه مع ذلك كان يحرص حرصا واضحاً على إيصال الفكرة إلى ذهن القاريء. وأغلب الظن أن ابن المقفع تأثر في كتابته بالأثر اليوناني والفارسي حتى أنه عندما كان يقول "قالت الحكماء" كان يقصد الفرس. وقد وضح الدكتور أحمد أمين في كتابه "ضحى الإسلام" بعض النماذج

([1]) الفهرست لابن النديم ص١٨٢.

التي استمدها ابن المقفع من اليونان، وقارن بينها وبين أسلوب "ابن المقفع" وليس معنى هذا أنه اكتفى بهذه العناصر الدخيلة، بل أنه لم يغفل العنصر الإسلامي الذي برز بشكل واضح ملموس في كل ما كتب حتى أننا نتبين منه أنه كان على إلمام بالقرآن الكريم والحديث الشريف إلى حد ما.

آثاره الأدبية:-

وقد ترجم ابن المقفع مجموعة من الكتب الفارسية في التاريخ والفلسفة فذكر منها:

١- كتاب "خدينامه" أو "خدينامك" ومعناه كتاب الملوك أو كتاب السادة في تاريخ ملوك الفرس.

٢- كتاب "آيين نامه": في عادات الفرس ونظم مراسم ملوكهم.

٣- كتاب "التاج": في سيرة "أنوشروان".

٤- كتاب "الدرة اليتيمة والجوهرة الثمينة" فب أخبار السادة الصالحين.

٥- كتاب "مزدك".

٦- كتاب "قاطيغورياس": في المقالات العشر.

٧- كتاب "باري أرمنياس": في العبادة.

٨- كتاب "ايسافوجي" أو "المدخل" لفورفوريوس الصوري.

٩- كتاب "انولوطيقا" في تحليل القياس.

والذى يهمنا كتبه الأدبية الأخرى في الأدب والاجتماع والسياسة والأخوانيات ونذكر منها:

١- رسالة الصحابة.
٢- كتاب "الأدب الكبير".
٣- كتاب "الأدب الصغير".
٤- كتاب "كليلة ودمنة" المشهور.

وقد عثر أحد الباحثين الإيرانيين على كتاب جديد لم ينشر بعد في "آداب تعليم الصغير" وقد بدأه "ابن المقفع" بعبارة: "أي ولدي الصغير"- يسر بالفارسية- واستمر ابن المقفع يردد هذا النداء بين الفقرات، وهو يوجه إليه الخطاب، حتى ينشأ نشأة طيبة، ويتزود بالثقافة التي تعينه على أن يكون في المستقبل شاباً نافعاً فرجلاً فاضلاً ولنعرض هنا بعض مؤلفاته:

١ـ رسالة الصحابة:ـ

تدور حول الجند والقضاء، والخراج بنوع خاص، وقد بسط فيها "ابن المقفع" آراء قيمة في القضاء، وقد كان فيها رجلاً واسع الثقافة، متشعب الآراء حكيماً، رزيناً، يعالج الأمور بما اتصف به من حكمة ودراية وخبرة وروية دون تلكؤ ودون إحجام.

وقد كتب هذه الرسالة لأمير من أمراء المؤمنين ولم يذكر هذا الأمير بالاسم، غير أنه من المرجح أن يكون "أبا جعفر المنصور" لأنه يذكر دولة العباس وقد استقرت، ويذكر أمير المؤمنين وقد أهلك الله عدوه، وشفى غليله، ويذكر "أبا العباس السفاح" ويترحم عليه. ويستنتج الدكتور أحمد أمين من هذه الظواهر أن "ابن المقفع" قد كتب هذه الرسالة للخليفة المنصور.

وقد تناول "ابن المقفع" في رسالته هذه أحوال الجند في الدولة المترامية الأطراف، حتى يسوس البلاد سياسة حكيمة. وقد تعرض "ابن المقفع" لحالة الجنود الخرسانيين الذين كانوا عماد الدولة في هذا العصر، والقائمين على حمايتها، وكانوا فرساً، ولذلك تعرض "ابن المقفع" لهم في كثير من مواضع الرسالة، لأنه كما نعلم ذو أصل فارسي ونصح الحاكم بأن يبعد الند عن الأمور المالية في بلاده إذ أن الخليفة كان يولي بعض قواده خراج بعض الأقطار، فكان يولي قائداً خراج مصر، وقائداً آخر خراج "خراسان".. وهكذا. وعلل "ابن المقفع" رأيه بقوله:

"إن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة"

كما نصح أمير المؤمنين بأن يهتم بصغار الجند: فرب صغير أعظم من الكبير، ورب مرءوس أرفع في ثقافته من رئيسه. وطالب بتثقيف الجند ثقافة مناسبة، وتعليمهم القراءة والكتابة، وتفهم أمور الدين،

ودعوتهم إلى الاعتدال في الزي، وتجنب الترف والسرف والبذخ الذي لا مبرر له ولا مدعاة لقيامه.

وطالب بنظام دقيق لصرف مرتبات الجند حتى لا يجأروا بالشكوى وتزداد شكواهم فيكون ذلك مدعاة إلى تمردهم والخروج على طاعة الخليفة. كما نصحه بالإلمام بأحوال الجند، وتتبع حياتهم وأخبارهم، حتى يجزي المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته.

وطالب "ابن المقفع" في رسالته كذلك بتحسين حال القضاة، وإزالة الفوضى المماثلة في ذلك الوقت في القضاء، حيث كان الاجتهاد هو الوسيلة الأولى في الحكم في كثير من القضايا مما جعل الأحكام متنافرة، والآراء متداخلة، والاجتهادات في القضية الواحدة متعارضة... مما ينجم عنه أوخم العواقب وأسوأ النتائج، فيشتد التنافر بين الأفراد، وقد يستحيل هذا التنافر إلى معارك شديدة، تراق فيها الدماء وتهتك الأعراض.

واقترح "ابن المقفع" أن ترفع إلى أمير المؤمنين كل قضية يختلف فيها القضاة ووكل مسألة يشتم منها رائحة الاختلاف، حتى يقضي أمير المؤمنين فيها برأيه، ويرسله إلى شتى الأقطار والأمطار.

وهكذا كان "ابن المقفع" يحاول في هذه الرسالة أن يرسم الخطوط الرئيسية لصلاح حال المجتمع ورفع مستوى الجند والخراج، والقضاء

بنوع خاص. ولم يكن عنيفاً في أسلوبه، ثائراً في عباراته، وإنما يتوخى الحكمة في الرأي والسداد في الفكر.

٢ـ الأدب الكبير:ـ

قيل أن الأدب الكبير هو "اليتيمة" و"الأدب الكبير" كتابان مختلفان ويرى الدكتور أحمد أمين أن "الأدب الكبير" ليس هو "اليتيمة" ودليله على ذلك أن "ابن قتيبة" في كتابه "عيون الأخبار" يقول أحياناً قرأت في "اليتيمة" وأحياناً أخرى قرأت في "الأدب الكبير" كما أن "ابن طيفور" يورد الإسمين في مواضع مختلفة، ويذكر الباقلاني في "إعجاز القرآن" أن "ابن المقفع" كتب كتابين: أحدهما "الدرة اليتيمة".

ويضم الكتاب حكماً كثيرة مستمدة من كثير من المصادر الفارسية واليونانية والإسلامية وغير ذلك، كما يضم حكماً في آداب السلطان ومصاحبيه من رجال السياسة ورجال الدين، وغير ذلك من الأمور التي يجب أن يتحلى بها المقربون إلى الملوك والسلاطين.

كما درس "ابن المقفع" في هذا الكتاب علاقة الأفراد بعضهم ببعض وضرورة الصراحة وعدم انتحال آراء الغير، وتجنب الهزل والسخرية ومعاملة الأعداء بالعدل، والأصدقاء بالرضى وحسن الاختيار، وغير ذلك من أمور يصلح بها شأن الفرد، ويستطيع أن يعيش في المجتمع سعيداً.

٣ـ الأدب الصغير:ـ

هو عبارة عن جمل موجزة أشبه بالأمثال وهي خطرات دونها "ابن المقفع" بعد خبرة طويلة بأمور الحياة وتفهم للحقائق الخفية من الدنيا ورغم ما نجد في الكتاب من عدم تنظيم في بعض الأحيان، ومن عدم فهرسة موضوعية دقيقة للموضوعات التي اشتمل عليها، ومع أنها مجرد خواطر يذكرها الكاتب كلما طرأت على ذهنه خاطرة أو ألمت به بادرة.. رغم ذلك كله فالكتاب يضم حكماً غتلية في عبارة رشيقة رقيقة، كقوله: أربعة أشياء لا يستقل منها القليل: النار، والمرض، والعدو، والدين". ومن الحكم التى وردت في هذا الكتاب في شأن حسن اختيار الصديق قوله:

"إن ذا الرأى لا يدخل أحداً من نفسه هذا المدخل، إلا بعد الاختبار والسبر، والثقة بصدق النصيحة ووفاء العمل".

وقد اتسم أسلوبه في هذا الكتاب على العموم بالحكمة السديدة الرشيدة فإذا هو فيلسوف يرشد وينصح ويوضح للناس معالم الطريق السوي المستقيم، ويبين الأخلاق المرذولة من الأخلاق الفاضلة ويرسم قوانين ودساتير، ويضع سنناً سليمة لنظم المعاملات بين الناس.

والآن ونحن في ختام كلامنا عن آثاره الأدبية يجدر بنا أن نقف وقفة أطول من الوقفات السابقة عند ذلك الكتاب الذي يعد كنزاً من كنوز الحكمة البشرية السامية التي تغذي القلوب والنفوس ألا وهو كتاب:

٤ـ كليلة ودمنة:ـ

نجد في هذا الكتاب أن "ابن المقفع" قد وضع نهجاً قويماً إذا اتبعه الحاكم استطاع أن يسير بدفة بلاده نحو الأمام ويكفل لرعيته الخير والرخاء والسعادة والهناء: فبين له المواضع التي يشتد فيها إذا احتاج الأمر إلى الشدة، ووضح له المواقف التي يلجأ فيها إلى اللين إذا احتاج الأمر إلى اللين، كما طالبه بأن يكون حليماً لا يستأثر به الغضب ولا تدركه العجلة، فلا يتنبه إلى عواقب الأمور، لأن الغضب يغشى العقل بغشاوة كثيفة لا يستطيع معها الإنسان أن يتبين حقائق الأمور واضحة جلية...

فإذا تحلى الملك بهذه الصفات والأخلاق، تجنب الفوضى أن تدب في بلاده. وطالب الملوك أن يكونوا أصحاب عهد ووفاء: فإذا عاهدوا وفوا بعهودهم، وإذا قالوا صدقوا في قولهم.

ويقول في باب الملك والطائر:

"قبحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء، وويل لمن ابتلى بصحبتهم، فإنهم لا حميم لهم ولا حريم، ولا يحبون أحداً، ولا يكرم عليهم إلا أن يطمعوا عنده في غناء، فيقربوه عند ذلك ويكرموه فإذا قضوا منه حاجتهم فلا ود ولا حفاظ ولا الإحسان يجزون به، ولا الذنب يعفون عنه... الذين إنما أمرهم الفخر والرياء والسمعة، الذين كل عظيم من الذنوب يركبونه، هو عندهم صغير حقير هين".

كما طالب الملك أو السلطان بأن يحسن اختيار معاونيه، لأن الرجل ضعيف بمفرده قوي بغيره وبأعوانه. وكلما كان الذين يلتفون حول الملك أصحاب عقل راجح وسياسة محنكة وفكر ثاقب استطاع الملك أن يحكم الناس بالعدل، وأن يثق في أن العدالة منتشرة بين ربوع بلاده.

وقد قال في باب الأسد وابن آوي:

"من عرف بالشراسة ولؤم العهد، وقلة الوفاء والشكر، والبعد عن الورع والرحمة والجحود لثواب الآخرة وعقابها، والحسد وإفراط الشره والحرص، والسرعة إلى سوء الظن والقطيعة والإبطاء عن المعاودة والمراجعة... فقطعة أحزم للرأي. ومن عرف بالصلاح وكرم العهد، والشكر والوفاء والمحبة للناس، والسلامة من الحسد والحقد، والبعد من الأذى، والاحتمال للأصحاب والإخوان– وإن ثقلت عليه منهم المؤونة فهذا حقيق أن تغتنم صحبته وصلته، ويمتنع من قطيعته واحذر من الخلطاء الثمانية: الكفور النعمة الغادر بما يعهد إليه، والذي لا يؤمن بيوم الحساب والثواب والعقاب، والمفرط في عرضه وهمه وغضبه، ومن يسخطه اليسير بغير علة، ومن لا يرضى بشيء وإن كان كثيراً جسيما، وذو المكر الداهي الغامض مكراً واللاهج بالزنا والحمر، والسييء الظن المتلون المتهجد القليل الحياء... كما ينبغي على الملك أن يحسن اختيار رسله ومندوبيه لأنهم هم الذين يتكلمون بلسانه ويعبرون عن رأيه، ويحملون رسالته، فلابد أن يكونوا أمناء على الرسالة، مخلصين على أدائها، حريصين على المنفعة العامة دون أن يجعلوا الأغراض الشخصية

تتدخل فيها وفى هذا المعنى بقول "ابن المقفع" في باب البوم والغربان: "فإن الرسول يلين القلب إذا رفق، ويخشن الصدر إذا خرق".

وأشار ابن المقفع كذلك في كتابه إلى آفة من آفات الملوك وأصحاب السلطان كثيراً ما تتمكن من دولة من الدول فتنخر في عظامها وتفتت في كيانها وتسلمها إلى الضعف والإضمحلال.. ألا وهي استئثار أصحاب السلطات بأقاربهم ومحاسيبهم وأهل خاصتهم، ليسندوا إليهم أرفع المناصب وأعلى المراكز، مع أن الحكمة تتطلب اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب. ولم يشر "ابن المقفع" صراحة إلى هذا التعبير الذى نستخدمه في حياتنا اليومية في العصر الحديث، إنما استخدمه بطريق غير مباشر حين قال في باب "السائح والصواغ":

"إن الملوك وغيرهم جدر أن يؤتوا بالخير إلى أهله، وأن يؤملوا من كان عنده شكوى، ولا ينظروا إلى أقاربهم وأهل خاصتهم، ولا إلى إشراف الناس وأغنيائهم وذوي القوة منهم، ولا يمتنعوا أن يصنعوا المعروف إلى أهل الضعف والجهد والفاقة، فغن الرأي في ذك أن يجربوا ويختبروا صغار الناس وعظماءهم في شكرهم وحفظهم الود في غدرهم وقلة شكرهم ثم يكون عملهم في ذلك على قدر الذي يبدو لهم".

وكما رسم "ابن المقفع" الخطوط الرئيسية للحكام وأصحاب السلطان، رسم الخطوط الرئيسية كذلك في آداب الأفراد وعلاقاتهم العامة وحلل صداقاتهم، وبحث في أسباب محبتهم والدواعي التي تدفع

إلى التنافر بين الناس. ويرى "ابن المقفع" أن الصداقة إما تتناول ذات النفس أو تتناول ذات اليد، والأولى هي المصافاة، وهي أفضل من الثانية. وأما رأس المودة فهي الصراحة، وحسن الثقة بالصديق والائتناس به. وثلاثة أشياء تزداد بها الصلة بين الأصدقاء: المؤاكلة، والزيارة في البيت، ومعرفة الأهل والحشم، كما اعتقد أن المحبة بين الأصدقاء كالإناء من الذهب بطيء الانكسار، سريع الإعادة إلى أصله الأول إذا أصابه تلف أو كسر. أما المحبة المصطنعة فهي كالإناء من الفخار إذا أدركه أى تلف فهيهات أن يعود إلى إصله الأول. وكان يقول: "لا خير في العيش بعد فراق الأحبة، وإذا فرق بين الأليف والألفة فقد سلب سروره وغشى على بصره ورسم "ابن المقفع" الفضائل المثلى وكان يقوى على لسانه "برزويه": "أفضل الأشياء في الرجال كتمان السر، وحفظ ما استودع فيه. وإذا ابتلى الرجلان المتحابان دخل بينهما رجل خؤون يفسد بينهما، وخير للرجل العاقل أن يطرح كلام السفهاء ولا يصدق كلام المغرضين".

وإذا كان "ابن المقفع" يرى أن من فضائل الرجل المثالي أن يحافظ على السر، فإن المرأة عند "ابن المقفع" تختلف عن الرجل تماماً في كتاب "كليلة ودمنة" لأنها لا تحفظ عهداً، ولا ترعى ذمة في أكثر أبواب الكتاب، والعاقل من لا يسترسل إليها، ومن لا يفشى إليها بسره أو يفصح لها عن أمره. وقال في باب "القرد والغيلم": "إن الذهب يعرف بالنار، وأمانة الرجل بالأخذ والعطاء، وقوة الدواب تعرف بالحمل الثقيل،

والنساء ليس لهن شيء يعرفن به". وقوله في باب "البوم والغربان": "قل من حرص على النساء فلم يفتضح".

وكان "ابن المقفع" يعتقد أن القناعة كنز لا يفنى، وأن المال عرض زائل ومتاع لا يلبث أن يضيع، وخير لهؤلاء الذين يجمعونه ألا يدركهم الغرور، ولا تنالهم العجرفة فيتكبروا ويتعجرفوا ويسيروا في الأرض مرحاً. ورغم أن المال ضرورة من ضرورات الحياة. وسبب من أسباب القوة في بعض أبواب الكتاب، فإنه على النقيض من ذلك آفة من آفات المجتمع إذا استخدم استخداماً سيئاً، وخير الأمور الوسط وأحسنها الاعتدال. وفي هذا يتفق "ابن المقفع مع الفيلسوف اليوناني "ارسطا طاليس" في نظرية الاعتدال حيث كان يرى أن الشهامة فضيلة متوسطة بين التهور والجبن وأن القناعة فضيلة متوسطة بين السرف والتبذير، والشح والتقتير. وقال في باب "الحمامة المطوقة":

وقد جربت وعرفت أنه لا ينبغي لأحد أن يلتمس من الدنيا طلباً فوق الكفاف الذي يدفع به الخاجة والأذى عن نفسه، وذلك يسير إذا أعين بسعة نفس وسخاء يد، وأما ما سوى ذلك ففي مواضعه ليس له منه إلا ما لغيره من حظ العين. ولو أن رجلاً وهبت له الدنيا بما فيها لم ينتفع من ذلك إلا بالقليل الذي يكف به الأذى عن نفسه، وأما ما سواه ففي مواضعه لا يناله".

وإلى جانب هذا نجد كثيراً من الأفكار القيمة في القضاء والقدر وأمور الحياة والزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة، حتى يستطيع الإنسان أن يتبين مكانه من الحياة، وتتضح له معالم الطريق واضحة مشرقة الجنبات، ولا يكون كمثل الذى يقذف بالحجر في ظلمة الليل وحلكة الدجى، ولا يدرى أين وقع الحجر ولا ماذا صنع.

ونلاحظ في كتاب "كليلة ودمنة" أن "ابن المقفع" عندما نقله إلى العربية حاول أن يضفي عليه ما اتسم به أسلوبه من فنية واضحة تجلت في اختيار الألفاظ وانتقاء العبارات ولذلك نجده عندما يترجم هذا الكتاب يستخدم بعض الألفاظ العربية الأصيلة التي تعب الشراح في شرحها والبحث عن مصادرها في المعاجم اللغوية، عندما حاولوا أن ينشروا هذا الكتاب بين النشأ، ولكنه مع هذا لم يكن حريصاً على اللفظ بقدر حرصه على الفكرة، ولم يكن متمسكاً بالمبنى طارحاً المعنى وراء ظهره، إنما كان يحاول جاهداً أن يعبر عن الفكرة التي يريد أن يعرضها، أو القصة التي يريد أن يسردها بأقرب سبيل.

فقيمة هذا الكتاب لا تعزي إلى أسلوبه الأدبي الرفيع فقط، إنما تعزي أولاً وقبل كل شيء إلى ما فيه من حكم ونوادر وطرائف، لا نزال نرددها في حياتنا اليومية حتى اليوم، ونقتبس منها فيما يلم بنا من ظروف الحياة. ومن أمثلة ذلك: "وينبغي على العاقل أن يكون لهواه متهماً، ولا يقبل من كل أحد حديثاً، ولا يتمادى في الخطر إذا ما ظهر له خطره، ولا يقدم على أمر حتى يتبين له الصواب، وتتضح له الحقيقة، ولا يكون

كالرجل الذي يحيد عن الطريق فيستمر على الضلال فلا يزداد في السير إلا جهداً وعن القصد إلا بعداً... وكالرجل الذي تقذى عنيه فلا يزال يحكها وربما كان ذلك الحك سبباً في ذهابها". وقوله: "المرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضعية إلى المنزلة الرفيعة، ومن لا مروءة له يحط نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة. وإن الارتفاع إلى المنزلة الرفيعة شديد والانحطاط منها هين، كالحجر الثقيل: رفعه من الأرض إلى العاتق عشر، ووضعه على الأرض هين. والرجل الشديد القوي لا يعجزه الحمل الثقيل، وإن لم تكن عادته الحمل، والرجل الضعيف لا يستقل به وإن كان ذلك من صناعته".

وهكذا نجد من هذه الأمثلة أن حكمة "كليلة ودمنة" تساير كل زمان ومكان، وقد نقلها "ابن المقفع" إلى العربية في أسلوب عربي مبين لا نزال نجنى قطافه حتى اليوم، ونستمتع بما فيه من آيات بينات. والمعروف أن هذا الأسلوب الحواري الذي لجأ إليه "ابن المقفع" أسلوب طريف لجأ إليه كثير من الكتاب في أوروبا وفي مصر وفي الشرق العربي ونذكر منهم الكاتب الفرنسي المعروف "لافونتين" الذي كتب خرافاته وترجمها له "عثمان جلال" إلى العربية بالنثر حيناً وبالشعر حيناً آخر، ولا يخفي علينا قصة "الثعلب وكرمة العنب" التي نجد لها نظائر في كتاب "كليلة ودمنة". ولا ندعي أن هنالك تأثراً وتأثيراً، ولكنا نقول إن هذا الأسلوب الفريد له نظائر عظيمة في الأدب الأوروبى، وأنه أضاف إلى الأدب العربي ثروة كبيرة.

وقد كتب الدكتور "طه حسين" منذ سنوات كتاباً أطلق عليه "جنة الحيوان" وجعل الأسلوب في هذا الكتاب يجري على لسان ما فيه من حيوان، والواقع أن طه حسين لم يكن يقصد بحديثه حيواناً معيناً أو نوعاً من الطير إنما كان يقصد غرضاً سياسياً في نفسه يكمن وراء قصته والحكمة التي نستخلصها منها، وكذلك يمكن ان نقول بالقياس إلى أن ابن المقفع فالحرية السياسية لم تكن متوافرة في زمنه وهو بذلك لا يستطيع أن ينقد الخليفة وبطانته نقداً صريحاً. وكان الخليفة "أبو جعفر المنصور" مشهوراً في ذلك الوقت بالبطش والشدة وإعمال السيف في رأس كل من تحدثه نفسه بخروج عليه حتى كان من ضحاياه من قتل بالظنة وتذرع المنصور في قتلهم بالزندقة، وكما ذكرنا كان "ابن المقفع" يشبه إلى حد بعيد موقف "بيدبا" الفيلسوف مع "دبشليم" الملك ووجد بينه وبين "بيدبا" كثيراً من المشابه التي يمكن أن يجلوها هذا الكتاب ويعبر عن دخيلة نفسه.

وقد نظم "إبان اللاحقي" كتاب "كليلة ودمنة" بالشعر. ثم نظمه شاعر آخر هو "ابن الهبارية" في كتاب "الفطنة" ويقول "ابن الهبارية" في ترجمته: إنها خير من ترجمة "إبان اللاحقي" وله نظم ثالث اسمه "در الحكم في أمثال الهنود والعجم" أكمله عبد المؤمن ابن الحسن الصاغاتي. وألف "ابن الهبارية" على غراره كتاب "الصاروخ والباغم" الذي طبع في بيروت ومصر، وكذلك ألف "أبو عبد الله محمد ابن القاسم القرشي" المعروف بابن ظفر المتوفى سنة ٥٩٨م كتاباً بعنوان "سلوان المطاع في عدو الطباع" على غرار كتاب "كليلة ودمنة" كما ألف "ابن

عربشاه" على هذا النسج كتابه "فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء" وكتابه "مرزمان نامه" الذى ترجمه من الفارسية ويذكر صاحب كشف الظنون أن أبا العلاء المعري ألف كتاباً اسمه "القائف" على مثال كتاب كليلة ودمنة وهو في ٦٠ كراسة ولم يتم وله كتاب آخر يسمى "منار القائف" يتضمن تفسيره في عشرة كراريس وفي رسائل إخوان الصفاء رسالة بين الحيوان والإنسان لا تخلو من لون كتاب "كليلة ودمنة" ويقول "جولد تسيهر": إن اسم إخوان الصفا قد يكون مقتبساً من كتاب "كليلة ودمنة" إذا ورد هذا الاسم في صدر باب "الحمامة المطوقة" وقد ألف كثير من الكتاب بعد ذلك كثيراً من القصص على غرار قصص: الأسد والثور، والبوم والغربان، والقرد والغيلم، والناسك، وابن عرس، وغيرها من قصص "كليلة ودمنه".

وهكذا نجد ابن المقفع- بعد عبد الحميد الكاتب- زعيم المدرسة الأولى في النثر الفني عند العرب وقد راجت كتبه في عهده وبعد عهده، وضربت الأمثال ببلاغته وأصبح رمزاً من رموز الحكمة والبلاغة وإماماً من أئمة النثر، ومرجعاً من مراجع الفكر والاجتماع.

الجاحظ

يعد الجاجظ من أعلام الكتاب في تاريخ الأدب العربي ومن الفنانين الذين كان لهم طابع خاص في طريقة الأداء الفني ظلت تنتقل من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر، وقد عاش الجاحظ في العصر العباسي أي منذ أكثر من ألف ومائتى عام، وأمتار العصر العباسي بين العصور الأدبية بازدهار الثقافة وانتشار الثقافات الأجنبية من هندية وفارسية ويونانية ورومانية، وقد تقابلت هذه لاجداول المتعددة مع جدول الثقافة العربية في هذا العصر وظهر أثر هذا الامتزاج في أدب أدباء هذا العصر ونذكر منهم الجاحظ الكاتب العربي الخالد.

لم يكن الجاحظ إماماً لمسجد أو شيخاً لطريقة أو معلماً في مدرسي حتى يمكن أن يكون على صلة بالدين أو الأدب، إنما كان تاجراً بسيطاً يبيع الخبز والسمك، غير أن طبيعة الحياة في هذا العصر كانت تملى على الناس التزود بالثقافة والارتشاف من مناهل العلم، فكان الجاحظ يلجأ إلى دكاكين الوراقين وبائعي الكتب ليشتري ما طاب له من كتب وأشعار وساعده على ذلك ما وهبه الله من قريحة نفاذة.. وملكه صافية نحو الأدب. وقد اغتنى بعد ذلك من كتبه فأعطاه الوزير ابن الزيات خمسة آلاف دينار على كتاب الحيوان كما أعطاه وزير آخر

خمسة آلاف على البيان والتبيين وأعطاه ابراهيم العباس خمسة آلاف دينار على كتاب الزرع والنخيل.

وقد كان الجاحظ يقضي الساعات الطوال في تقليبه هذه الأشعار وقد يصرفه ذلك عن الطعام أو الشراب ويجن علهي الليل وهو جالس في أحد أركان الدكان يتصفح الكنوز الأدبية على ضوء مصباح خافت ضئيل ولذلك كانت كتب الجاحظ أشد بدوائر معارف واسعة جمعت شتى الطرف. ووضع في كتابه (البيان والتبيين) قواعد للبلاغة في اختيار اللفظ وانسجامه مع المعنى وفي الخطابة ونحو ذلك ثم التزم ذلك فيما كتب.

وكان مثقفاً ثقافة واسعة. ثقافة دينية في فروعها المختلفة وثقافة فلسفية إذ كان أحد أعلام الفلاسفة في ذلك العصر وقرأ ما نقل إلى العربية من الفلسفة اليونانية في فروعها المختلفة. وكان مثقفاً ثقافة أدبية ارتشف من شيوخ الأدب وحصل منهم على أقصى ما يمكن أن يحصله إنسان. ومزج كل ذلك وهضمه ثم أخرجه للناس تأليفاً ممزوجاً وكاد بتآليفه الكثيرة أن يحسن كل موضوع في عصره من سياسة واجتماع واقتصاد وحيوان ونبات وشعوب ونحو ذلك، وخير ما يوضح هذه الاتجاهات العديدة كتاب الحيوان الذي وضعه في سبعة أجزاء، وليس الكلام فيه على الحيوان فقط إنما اشتمل على ألوان متعددة من المعرفة.

كان الجاحظ أحد أدباء ثلاثة نهضوا بالنثر الفني من دور الطفولة إلى دور الشباب وهم عبد الحميد الكاتب وعبد الله بن المقفع وأبو عثمان الجاحظ، ويقال عن كتب الجاحظ أنها رياض مزهرة وأشجار مثمرة.

وكان ابن العميد وهو أحد الأدباء العرب المعروفين يقول: إن الناس عيال على الجاحظ في البلاغة والفصاحة (أي يعولهم) وقيل لأحد الأدباء لماذا لا تهجو الجاحظ في كتاباتك وهو الذي آلمك في حياتك؟ فقال: أمثلي يخدع في عقله! والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة! وأنا لو وضعت فيه ألف رسالة لطنت طنين الذباب..!..

كتب الجاحظ في مختلف الموضوعات فكتب في النبات والشجر والحيوان وكان يعتني باللفظ والمعنى ويعتقد أن خير الأدباء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيىء رسم الألفاظ، وقد كان الأدباء العرب فيما قبل الجاحظ يعتمدون في أسلوبهم على اللفظ أكثر مما يعتمدون على المعنى ويؤثرون موسيقية اللفظ وإيقاع الفقرات على لباب الفكرة.

امتازت كتابات الجاحظ بالواقعة والوضوح، وكان يمثل عصره تمثيلاً صحيحاً بدون زخرفة ولا زركشة. كان يصور عصره بما فيه من حضارة وأبهة حكماء وعقلاء وحمقى ومفطنين! وكان إلى جانب هذا يعمد إلى السخرية في أسلوبه، ويلجأ إلى التصوير الكاريكاتوري في معانيه فيثير

الضحك والسخرية، وكان يعتقد أن خير الأساليب لمعاملة عدوك أن تجعله سخرية للناس ومن أجل ذلك تهكم على أعدائه، وصورهم تصويراً فيه كثيراً من الطرافة والتفكه، فأحمد بن عبد الوهاب رجل قصير القامة ويزعم أنه طويل القامة وهو قصير الأصابع ويزعم أنه رشيق الأصابع وهو عتيق الوجه يبدو عليه الكبر والشيخوخة، ويزعم أنه لم يتخط سن الشباب وهو جهول ويزعم أن الله قد وهبه سعة في العلم كما وهبه سعة في الجسم، وهو عندما يمشي يبدو كأنه مربع ويزعم أنه معتدل كالسهم! وما إلى ذلك من صور طريفة تدعو إلى السخرية والضحك.

وقد تأثر الشاعر ابن الرومي بهذه الصور الطريفة في شعره فرسم لنا في أشعاره صوراً من هذا القبيل وعلى هذا النمط، فأعطانا صورة الرجل البخيل الذي يكاد من فرط بخله يتنفس من منخار واحد كما أعطانا صورة الرجل المتدين الكاذب الذي يرسل لحيته لتضليل الناس فشبهها بمخلة الحمار ولكنها مخلاة فارغة ليس فيها شعير!

ويمتاز الجاحظ في أسلوبه العربي بالتوقيع الموسيقي بين العبارات إلا أنه لا يتعمد ذلك تعمداً ولا يتكلفه تكلفاً إنما يأتى عن طواعية واختيار. كما يمتاز بالاستطراد في أسلوبه والتكرار وقد دعته إلى هذا كثرة الموضوعات التي شاتملت عليها كتبه كما لاحظ ذلك المستشرق المعروف كارادي فو Cara de Vau.

فقد كتب الجاحظ في كل موضوع تقريباً من المعلمين إلى بني هاشم ومن اللصوص إلى الذئاب، ومن الكلام في القيامة، ومن القضاة والولاة إلى أمهات الأولاد، ولذلك كانت كتبه أشبه بدوائر المعارف إلا أنها غير مرتبة على أحرف الهجاء ولا على أي أساس. وقد تحرر من الغموض الذي امتاز به من سبقه من العلماء مثل الأخفش وكان يخلط الجد بالهزل ويسيغك اللقمة الجافة بكثير من الحلوى ويزين لك القبيح من الأمور، فإذا هو مليح يسلب الفؤاد ويبهر العين وينقلك من الحزن إلى الفرح، ومن اللوعة والأسى إلى الابتهاج والانشراح، فى سهولة ويسر.

ولقد امتاز العصر الذي عاش فيه الجاحظ بتنوع الثقافات والحضارات من فارسية وهندية ويونانية ورومانية، وقد انطلق العلماء والأدباء في هذا العصر ينهلون من هذه الجداول ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ومنهم من اقتصر على جدول دون آخر وعلى ثقافة دون ثقافة، ووجد فيها لذة ومتاعاً وجلاء لعقله وغذاء لروحه. أما الجاحظ فإنه لم يقتصر على الانتهال من جدول واحد إنما كان ينهل ويعب من الجداول جميعاً. فقرأ فلسفة اليونان والرومان وحكم الفرس ونوادرهم، واستوعب مؤلفات ابن المقفع وترجماته وعكف على التراث العربى درساً وبحثاً وحفظاً. فأثرت كل هذه التيارات في ثقافته ولونت عقليته. وكان لا يأخذ منطق اليونان وفلسفتهم كقضية مسلمة ونتيجة محتومة لا مفر منها إنما كان يعارض فلسفة اليونان وآراءهم في بعض الأحيان، ومن الطرف إنه نقل عن أرسطو إن أناث العصافير أطول أعماراص، وأن ذكورها لا تعيش

إلا سنة إلا أنه علق على كلامه هذا بأن أرسطو لم يأت بدليل واحد على قوله وكيف يستطيع أن يأتى بدليل حازم والعصافير قد تكون المزارع والمروج والأعشاش مملوءة بها وبيضها وفراخها والناس القريبون منها لا يلاحظون وجود عصفور ميت.

وتارة يكذب أرسطو طاليس فيقول: زعم صاحب المنطق أن قد ظهرت حية لها رأسان فسألت أعرابياً عن ذلك فزعم أن ذلك حق فقلت له فمن أي جهة الرأسين تسعى ومن أيهما تأكل وتعض؟ فقال: فأما السعي فلا تسعى ولكهما تسعى إلى حاجاتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على لارمل، وأما الأكل فإنها تتغدى بفم وتتعشى بفم وأما العض فهي تعض برأسيهما معاً.. وهذا كلام غير صحيح لم يأت في أخبار الأوائل ولا الأواخر.

وقد امتلأ كتاب الحيوان بكثير من الطرائف والأخبار التي تبين سيكولوجية الحيوان. والغريب أنه أخذ يراقب الديك ويستمع إلى ندائه بالليل ويبحث هل إذا كان في قرية وحده يصيح أم لا ليعلم هل تصيح الديكة بالتجاوب أم يطبعها، وأخذ يراقب الدجاج وهل تكثر أفراخها إذا كثر عديدها أم تقل، ولاحظ الكلب ملاحظة دقيقة ليعلم مقدار ذكائه ومدى انتباهه.

وقال ليس هناك أصدق حذراً من العصفور ويقال إنه في ذلك أكثر من الغرب "وخبرني من يصيد العصافير أن العصفور ربما كان ساقطاً على

حائط سطح بحذائي فيغمني صياحه، وحدة صوته فأصيح وأوميء إليه بيدى وأشير كأنى أرميه فما يطير حتى ربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئاً. وهو لا يتحرك فإن مست يدي أدنى حصاه أو نواه وأنا أريد رميها طار قبل أن تستمكن منها يدي...!

وقال إن الكلب أيقظ الحيوانات وهو لا ينام إلا غراراً ولهذا وصف العرب السدان بأنه ينام نوم الكلب أي ينام قليلاً ويظل يقظاً وهو يستطيع الاستماع إلى الصوت وهو نائم ويعيش على الجراح وأشد الأشياء فكاً وأحدها ناباً وأطيبها فماً وأكثرها ريقاً وأعظمها ألفة للإنسان.

وقال إن الأسد إذا أكثر من حسو الدماء، والدماء حلوة وأكل اللحم واللحم حلو، طلب الملح ليتملح والأسد يخرج ابتغاء التملح ولا يزال يسير حتى يجد ملاحة فإذا ما كان الشيء المملح عاد إلى عرينه وغايته مبتهجاً سعيداً.

وقال إن الهدهد هو الذي يدل على مواضع الماء كما حدث للنبى سليمان وإن كان مولود في الأرض يولد أعمى– إن كان تأويل العمى أنه لا يبصر إلا بعد أيام– فمن المواليد ما يفتح عينيه بعد أيام كالجروة ولد الكلب أو الأسد أما أولاد الدجاج أو الفراريخ فإنها تخرج من البيض كاسية مبصرة.

على أن الجاحظ لا يتميز بكتابة الحيوان فقط وإنما يتميز بكتب أخرى مثل (البيان والتبيين) وقد تكلم في هذا الكتاب عن (العي) وساق

الأشعاء في ذمه وانتقل إلى فصاحة اللسان وعاب الالتواء في الحديث، واللدغة في اللسان التى قد تدعو بعض المتكلمين إلى عدم استخدام الراء واستخدام كلمة أخرى خالية منها، ثم تحدث عن الخطابة وأشهر الخطباء وتكلم عن الحروف المتنافرة في الألفاظ والجمل وخصص باباً للشعر وأسماء الكهان والحكام وتكلم في الجزء الثاني عن الحمقى والمجانين ونوادرهم ورد في كتاب (العصا) على طائفة (الشعوبية) أي المتحمسين للفرس والثقافة الفارسية، وتكلم في كتاب (الزهد) وعن النساط وأدعيتهم والمتصوفين وأساليبهم وقارن بين بلاغة العرب وبلاغة الفرس واليونان ورأى أن كلام الفرس يصدر عن فكرة وطول روية واجتهاد ومشاورة، أما كلام العرب فإنه صادر عن بديهة وارجال كأنه إلهام وذكر عادة الرهبان في اتخاذ العصا عند الخطابة وعادة (الجاثليق) في اتخاذ القناع أو المظلة. وعالج الجاحظ في كتاب (النساء) موضوعاً أدخل في علم النفس وهو الفرق بين الذكر والأنثى. واستعداد كل منهما ونوع الحياة التي تلائمهما كما تحدث في كتاب (أخلاق الملوك) عن الآداب المرعية في قصور ملوك فارس وخلفائهم غير أن هذا الكتاب مشكوك في نسبته إلى الجاحظ... ودرس في كتاب (السودان والبيضان) نفسية الرجل الأسود والرجل الأبيض وطريقة معاملتهما والفروق البادية في سلوكهما وأخلاقهما، ولذلك كان الجاحظ عالماً بالطبيعة والإنسان وإن لم يرم في كتابته إلى ابتداع هذا العلم والتأليف فيه.

ويعد كتاب البخلاء من أمتع الكتب التي ألفها الجاحظ وأطرفها وقد روى الجاحظ في هذا الكتاب طرائف شتى عن البخلاء، ومما رواه

ان مروان بن أبى حفصة أرسل غلامه ليشتري له زيتاً بقرش فأتى الغلام بالزيت فقال له مروان: خنقني وسرقتني! قال: وفيم أخونك وأسرقك؟ أأخونك وأسرقك في قرش واحد! قال نعم أخذت القرش واستجديت الزيت.

ومن الطرائف التي رواها كذلك إن شيخاً بخيلاً كان يزور ابن المقفع الأديب العربي فألح عليه ابن المقفع أن يتغذى عنده في منزله إلا أن الشيخ كان يماطله في ذلك فكان ابن المقفع يقول: هل تظن أنني سأكلفك شيئاً! إنني لن أتناول إلا ما عندك. وأخيراً دعاه الشيخ إلى منزله للغذاء فلم يجد عنده سوى كسرة من الخبز وقليلاً من الملح فقدمه له ومر بالباب سائل يقول: بورك فيك فألح في السؤال فقال له الشيخ: انصرف عن وجهي وإلا نالك مني سوء فقال له ابن المقفع: انصرف أيها الرجل في هدوء فلو علمت قصتى معه ومماطلته في دعوتي لانصرفت في الحال دون كلمة أو إشارة!.

وقص علينا الجاحظ في كتبه كثيراً من نوادر المتنبئين والطفيليين والحمقى ومن النوادر التي ساقها عن المتنبئين قوله أن رجلاً ادعى النبوة أيام الخليفة المهدي فأدخل عليه فقال له أنت نبي؟ قال نعم قال وإلى من بعثت قال: أوتر كتمونى أذهب إلى أحد؟ ساعة بعثت وضعتموني في الحبس فضحك منه المهدى وأخلى سبيله.

ومن نوادر الطفيليين ما رواه أن طفيلياً صحب رجلاً في سفر فقال له الرجل: امض فاشتر لنا لحماً قال والله ما أقدر فمضى الرجل واشترى اللحم ثم قال له قم فاطبخ قال لا أحسن الطبخ فطبخ الرجل ثم قال له قم فكسر الخبز قال والكسلان فقعل الرجل، ثم قال له قم فاغرف قال أخشى أن ينقلب على ثيابي، فغرف الرجل ثم قال له: قم الآن فكل فقال الطفيلي قد والله استحييت من كثرة خلافي لك! وتقدم الطفيلي وأكل!

ومر طفيلي بقوم يأكلون فسلم وجلس يأكل فقالوا هل عرفت منا أحداً؟ قال نعم عرفت هذا وأشار إلى الطعام!

ومن نوادر الحمقى ما رواه الجاحظ عن جحا الذي مربه رجل وهو يحفر بصحراء الكوفة موضعاً فسأله عن ذلك فقال دفنت في هذه الصحراء دراهم ولست أهتدي إلى مكانها فقال له: كان يجب أن تجعل عليها علامة قال قد فعلت قال وما هي علامتك؟ قال سحابة في السماء كانت تظللها!

ومن الحمقى (باقل) الذي كان يضرب به المثل في (البكم) اشترى ظبياً باحد عشر درهما فلقيه شخص وهو معه فقال بكم اشتريته ففتح كفيه ومرق أصابعه وأخرج لسانه ويشير بذلك إلى أحد عشر فهرب الظبي!

واصطحب أحمقان في طريق فقال أحدهما للآخر إني أتمنى قطعاناً من الغنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها فقال له صاحبه: وأنا أتمنى قطعاناً من الذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك فيها شيئاً فقال! ويحك! أهذا من حق الصبحة واحتدم بينهما النزاع والمخاصمة، ثم تراضيا أن يحكم بينهما أول من يطلع عليهما فطلع عليهما رجل راكب حماراً عليه زقان من العسل فحدثاه بحديثهما فأنزل الحملين حتى سال العسل على التراب وقال! صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين!

وهكذا كان الجاحظ يروي لنا في كتبه أطرف النوادر وأملح الأقاصيص إلا أن كتبه كلها لا تدور على هذا النمط إنما كان كما قلت آنفاً يمزج الجد بالهزل وينتقل من العلم والأدب إلى المرح والتفكهة.

وعمر الجاحظ ٩٦ عاماً أي أنه عاش ما يقرب من قرن فولد في خلافة الخليفة المهدي وكان صبياً في خلافة الهادي وأتته خلافة هارون الرشيد وهو شاب وشاهد أوج الحضارة العباسية بزخرفها وتأنقها في هذه الفترة كما شاهد الصراع بين الأمين والمأمون أخيه على الملك، وأتصل بما كان في أيامه من حركة فلسفية وشاهد أيام المعتصم والمتوكل إلى أن مات في خلافة المهتدي بالله.

وإذا عرفنا إننا نعيش الآن في عام ١٣٨١هـ. قلنا إن الجاحظ قد مات في ٢٥٥هـ بعد حياة دامت ستة وتسعين عاماً! وقد أصيب في

أواخر حياته بالشلل فكان نصفه لو خر بالمناشير لما شعر به، أما نصفه الثاني فلو طار الذباب بقرب منه لآلمه! وقد قال في أواخر أيامه: لقد اصطلحت الأضداد على جسدي فلو أكلت بارداً أخذت برجلي وإن أكلت حاراً أخذ برأسي..!

لم يكن الجاحظ حلو القسمات بهي الصورة جميل الطلعة إنما سمى بالجاحظ لجحوظ عينيه.

وقد رغب الخليفة المتوكل في أن يؤدب الجاحظ أولاده إلا أنه رجع عن ذلك لدمامته.

بيد أن الجاحظ رغم هذا كله كان صاحب أسلوب يسيل رقة وجمالاً وموضوعاته طريفة شائقة في شتى المعارف الإنسانية سطرت اسمه على مرور الزمن في سجل الخالدين.

رفاعه الطهطاوي

أحد العلماء المصريين الذين ارتفع اسمهم في القرن التاسع عشر وأحد المبعوثين المصريين إلى أوربوا الذين كان لهم أثر محمود في حياة مصر الثقافية، والنهضة الفكرية في البلاد، واسمه السيد رفاعه بن بدوي بن علي... بن رافع ويرفع مؤرخوه نسبه من ناحية أبيه إلى الحسن بن فاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله كما يرفع مؤرخوه نسبه من ناحية أمه فاطمة بنت الشيخ أحمد الفرغلي إلى الأنصار الخزرجية.

ولد في طهطا في صعيد مصر، وتنقل في مدن الصعيد وحفظ شيئاً من القرآن الكريم ثم وفد إلى القاهرة حيث التحق بالجامع الأزهر وتلقى العلوم على شيوخه: كالشيخ الفضالي الذي قرأ عليه صحيح البخاري، والشيخ حسن القويسني الذي تولى مشيخة الأزهر وقرأ عليه كتاب "جمع الجوامع في أصول الفقه" وغير ذلك من كتب الفقه والدين وحضر شرح ابن عقيلي على الشيخ الدمنهوري.

وكان للشيخ حسن العطار أثر كبير في توجيه رفاعة إذ كان يتلقى عنه دروس التاريخ والجغرافيا والأدب وغير ذلك من العلوم العصرية التي نبغ فيها رفاعة فيما بعد.

وظل رفاعة في الأزهر حوالي ثمانية أعوام، ولما تخرج فيه اشتغل بالتدريس في الجامع وكان في هذه الآونة يسافر إلى بلده حيث يلقى بعض الدروس على الطلاب وقيل إنه درس ببلده شرح الملوي بحاشية الأمير على السمر قندية البلاغية، وقرا في شهر رمضان في بعض السنين، على عادة علماء هذه البلدة درساً حافلاً فسر فيه سورة القدر بشرح الأمير عليها. واجتمع في هذا الدرس علماء المدينة من إخوانه وأعجبوابه لحسن إلقائه وفي ذلك يقول المرحوم صالح مجدي: "وكان رحمه الله حسن الإلقاء بحيث ينتفع بتدريب كل من أخذ عنه، وقد اشتغل في الجامع الأزهر بتدريس كتب شتى في الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض وغير ذلك. وكان درسه غاصاً بالجم الغفير من الطلبة وما منهم إلا من استفاد منه، وبرع في جميع ما أخذه عنه.. كما علمت أنه كان حسن الأسلوب سهل التعبير، مدققاً محققاً قادراً على الإفصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب ولا كد ولا نصب".

وفي عام ١٢٤٠هـ (١٨٢٤م) عين رفاعة الطهطاوي إماماً وواعظاً في الجيش ثم طلب محمد على من الشيخ حسن العطار أن ينتخب من علماء الأزهر إماماً للبعثة يرى فيه الأهلية واللياقة فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة.

ولا شك أن الحياة العسكرية التي عاشها الشيخ الأزهري في الجيش قد علمته لوناً جديداً من الحياة قوامه حب النظام والكفاح في

سبيل الوطن ومواجهة الأخطار في جلد وصبر وإرادة وتصميم مما كان له أبعد الأثر في حياته العامة فيما بعد.

وقد سافرت هذه البعثة عام ١٢٤٢هت (١٨٢٦م) على ظهر سفينة حربية فرنسية قطعت بها البحر الأبيض المتوسط من الاسكندرية إلى مرسيليا في يوليو عام ١٨٢٦ ثم توجهت البعثة بعد ذلك إلى باريس. ويصف رفاعة الطهطاوي في كتابه "تخليص الإبريز" هذه الفترة من حياته فيقول "لما ذهبنا إلى باريس، مكثنا جميعاً في بيت واحد وابتدأنا في القراءة فكانت أشغالنا مرتبة على هذا الترتيب: وهو أنا كنا نقرأ في الصباح كتاب تاريخ ساعتين ثم بعد الغداء نتعلم درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرنساوية ثم بعد الظهر درس رسم ثم درس نحو فرنساوي وفي كل جمعة ثلاثة دروس في علمي الحساب والهندسة. وفي مبدأ الأمر كنا نأخذ في الخط درسين، يعني في معرفة الكتابة الفرنساوية، ثم بعد ذلك كنا نأخذ كل يوم درساً ثم انتهي الأمر إلى أننا تعلمنا الخط فانقطع عنا معلم الخط أما الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا، فلم نزل نشتغل بها حتى سهل الله علينا بالرجوع ومكثنا في بيت واحد دون سنة، نقرأ معاً في اللغة الفرنساوية، وفي هذه الفنون المتقدمة ولكن لم يحصل لنا عظيم مزية إلا مجرد تعلم النحو الفرنساوى ثم بعد ذلك تفرقنا في مكاتب متعددة كل اثنين أو ثلاثة أو واحد منا في مكتب مع أولاد الفرنساوية، أو في بيت مخصوص عند معلم مخصوص بقدر معلوم من الدراهم في نظير الأكل والشرب والسكني والتعليم".

ووصف رفاعة الطهطاوي الحياة الاجتماعية والعلمية في فرنسا وصفاً شائقاً بديعاً فقال أنه إذا قيل في فرنسا هذا الإنسان عالم فلا يفهم من ذلك أنه يعرف في دينه بل إنه يعرف علماً من العلوم الأخر. ثم يضيف قائلاً: "وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم عمن عداهم وبذلك تعرف خلو بلادنا من كثير منها. وأن الجامع الأزهر المعمور بمصر القاهرة، وجامع بني أمية بالشام وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس ومدارس بخارى ونحو ذلك كلها زاهرة بالعلوم النقلية وبعض العقلية. كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية. والعلوم التي في مدينة باريس تتقدم كل يوم فهي دائماً في الزيادة فإنها لا تمضي سنة إلا ويكشفون شيئاً جديداً فإنهم قد يكشفون في السنة عدة فنون جديدة أو صناعات جديدة أو وسائط أو تكميلات".

وكان الطهطاوي يرى في باريس لكل إنسان من العلماء أو الطلبة أو الأغنياء خزانة كتب على قدر حاله ويندر وجود إنسان في باريس من غير أن يكون تحت ملكه شيء من الكتب فيتمنى أن يرى مثل ذلك في مصر حتى تنتعش الحالة الثقافية في البلاد.

وقد أصيب رفاعة بضعف في عينه اليسرى أثناء إقامته في باريس نتيجة للمذاكرة والتحصيل حتى احتاج إلى الطبيب الذي نصحه بعدم مطالعة الليل، ولكنه لم يمتثل لأوامره حتى لا يعوق ذلك تقدمه، ولما رأى أن الأحسن في إسراع تعليمه أن يشتري الكتب اللازمة له غير ما سمح به "الميري" وأن يأخذ معلماً آخر- غير المعلم الميري- أنفق

جزءاً عظيماً من ماهيته في شراء كتب وفي معلم مكث معه أكثر من سنة.

وكان المبعوثون يمنحون "بثلثمائة قرش خشب للتدفي بها" في السنة لشدة البرد فضلاً عن أنه كان يشترى لنا من طرف الميري أيضاً القمصان والسراويل والنعال، وسائر ما يلزم من الآلات والأدوات مثل الكتب والورق والحبر وأقلام التصوير وغيرها. ومما ينبغي ذكره أيضاً ما كان يعطي للحكماء والأجزاجية في مداواة من كان يمرض منا... ولكثرة هذه المصاريف في تعليمنا وغيره من سائر ما ذكرنا كان ناظر التعليم أو الضابط علينا يذكرنا به في أغلب الأوقات لنجتهد!.

وقد سجل رفاعة الطهطاوي في كتابه "تخليص الأبريز في تلخيص باريز" صوراً من حياته في مدنية النور، ورسم أمام أعيننا لوحات حية عن الحياة الاجتماعية في فرنسا في القرن التاسع عشر، ومن ذلك أن هناك تقاليد متبعة في الطعام والشراب فيعطي لكل إنسان في صحته شيء يقطعه بالسكين التى أمامه، ثم يوصله إلى فمه بالشوكة لا بيده، فلا يأكل الإنسان بيده أصلاً ولا بشوكة غيره أو سكينته، أو يشرب من قدحه أبداً ويعتقدون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة ومما لاحظه عند الفرنج أنهم لا يأكلون أبداً في صحون النحاس بل ولا في أوانيه أبداً– ولو كانت مبيضة فهي للطبخ فقط، بل دائماً يستعملون الصحون المطلية، وللطعام عندهم عدة مراتب معروفة؛ وربما كثرت وتعددت كل مرتبة منها: فأول افتتاحهم الطعام يكون بالشوربة ثم بعده باللحوم ثم بكل نوع من أنواع الأطعمة

كالخضروات والفطورات ثم بالسلطة. وربما كانت الصحون مطلية بلون الطعام المقدم فصحون السلطة مثلاً خضراء منقوشة بلون السلطة، ثم يختمون أكلهم بأكل الفواكه ثم بالشراب المخدر إلا أنهم يتعاطون منه القليل، ثم بالشاى والقهوة ثم إنهم أحضروا لهم آلات الفراش، والعادة عندهم أنه لابد أن ينام الإنسان على شيء مرتفع نحو السرير!!.

ومن الطريف أنه رسم لنا في كتابه صوراً لباريس في جدها وهزلها وعملها ولهوها، ووصف لنا المسرح الفرنسى وما يدور على خشبته من تمثيليات: فالنساء اللاعبات والرجال يشبهون العوالم في مصر واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم وفصاحة، وربما كان لهؤلاء الناس كثير من التآليف الأدبية والأشعار. ولو سمعت ما يحفظه الفرد من الأشعار وما يبديه من التوريات في اللعب وما يجاوب به من التنكيت والتبكيت لتعجبت غاية العجب، كما صور رفاعة الطهطاوي صحف باريس وأنواعها وأصنافها وإيثارها للصدق حيناً، وللكذب أحياناً، وتخصص بعضها في المعاملات وبعضها في الطب وبعضها في أمور المملكة وبعضها في غير ذلك من الأمور.

وركب رفاعة "الأمنيبوسة" على حد تعبيره ومعناها "لكل الخلق" وهي عربات كبيرة تسع كثيراً من الخلق وكتب على بابها أنها تمشي إلى الحارة الفلانية، فكل الناس الذاهبين إلى حارة واحدة يركبونها، ويدفع كل منهم قدراً معيناً.

وشرح رفاعة الطهطاوي وسائل التنقل في المدينة ثم عرج على البريد عند الفرنسيين أو ما يطلق عليه الفرنسيون "البسطة" (Poste) ثم تناول ترقيم المكاتب والمنازل.

وتناول بعد ذلك وسائل التوفير عند الفرنسيين وتدبير المصارف وحبذ الاقتصاد عندهم وانتقد الإسراف عند المصريين وقال: "فإن الوزير مثلاً ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادماً، وإذا مشى في الطريق لا تعرفه من غيره، فإنه يقلل أتباعه ما أمكنه داخل داره وخارجها فانظر الفرق بين باريس ومصر حيث أن العسكري في مصر له عدة خدم".

وهكذا يعد كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" صورة ناطقة لحياة الطهطاوي في هذه المدينة وقد ترجم أثناء إقامته هناك إثنى عشر كتاباً تتراوح بين الكبر والصغر وهي:

١- كتاب أصول المعادن.
٢- كتاب دائرة العلوم في أخلاق الأمم وعاداتهم.
٣- مقدمة جغرافية طبيعية.
٤- أصول الحقوق الطبيعية التي يعدها الفرنج أصلا لأحكامهم.
٥- نبذة من تاريخ اسكندر الأكبر مأخوذة من تاريخ القدماء.
٦- تقويم سنة ١٢٤٤ من الهجرة ألفة الأستاذ جومار لمصر والشام متضمناً شذرات علمية وتدبيرية.
٧- قطعة من كتاب ملطبرون في الجغرافية.

٨- نبذة في علم هيئة الدنيا.

٩- نبذة في الماثيولوجيا، يعني في جاهلية اليونان وخرافاتهم.

١٠- نبذة في علم سياسة الصحة.

١١- قطعة من عمليات ضباط عظام.

١٢- ثلاث مقالات من كتاب لجندر في علم الهندسة.

كما قام فضلاً عن ذلك بترجمة دستور فرنسا، ومقال سياسي عن حرب الدولة العثمانية لروسيا عام ١٨٢٨ ومقال عن التاريخ وعدة رسائل وتقريرات، وترجمة "مسائل علمية وسياسية".

وقام رفاعة الطهطاوي إلى جانب الأعمال السابقة بترجمة عدة أبيات من القصيدة المسماة "نظم العقود في كسر العود" للخواجة يعقوب المصري منشأ الفرنساوي استيطاناً. وذكر رفاعة أنه ترجمها عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦-١٨٢٧م) أي بعد وصوله إلى باريس واعتقد أن ترجمة الشعر تفقده جماله وروعته فقال معقباً على ترجمته في النهاية: وهذه القصيدة كغيرها من الأشعار المترجمة من اللغة الفرنساوية، عالية النفس في أصلها، ولكن بالترجمة تذهب بلاغتها، فلا يظهر علو نفس صاحبها ومثل ذلك لطائف القصائد العربية فإنه لا يمكن ترجمتها إلى غالب اللغات الإفرنجية من غير أن يذهب حسنها بل ربما صارت باردة.

وقد شكلت لجنة لاختبار الشيخ رفاعة الطهطاوي أو "مسيو الشيخ رفاعة" على نحو ما جاء في القرار برياسة المسيو "جومار"

ونظرت في أعماله السابقة، بل أنها رأت أن تمتحنه أمتحاناً شفهياً لتتأكد من قدرته على التأليف والترجمة، واتضح للجنة أثناء الاختبار أن بعض ترجماته ضعيفة والأخرى جيدة بيد أنها التمست العذر له لأن الترجمات الضعيفة قام بها عقب وصوله إلى باريس وقبل تمكنه من دراسة اللغة الفرنسية وأنهت اللجنة امتحانها الشيخ رفاعة بقرار جاء فيه:

وكان عيبه أنه لم يحافظ على تأدية عبارة الأصل بجميع أطرافها وعلى كل حال فلم يغير في المعنى شيئاً بل طريقته في الترجمة مناسبة واستقر رأى اللجنة جميعاً على "أنه يمكنه أن ينفع في دولته بأن يترجم الكتب المهمة المحتاج إليها في نشر العلوم، والمرغوب في تكثيرها في البلاد المتمدنة".

وعاد رفاعة الطهطاوي من باريس بعد أن قضى نحو خمس سنوات في الدراسة والتحصيل، فولاه محمد علي منصب الترجمة في مدرسة الطب التى كان قد أنشأها عام ١٢٤٢هـ في قرية أبي زعبل قرب القاهرة برئاسة كلوت بك الشهير، وكان يتولى هذا لامنصب قبل رفاعة الطهطاوي المرحوم يوحنا عنحوري من أبناء سوريا وقد رحبت شتى الدوائر العلمية والثقافية بتوليه هذا المنصب، لأن عدد الذين كانوا يتقنون اللغة الفرنسية بل اللغات الأجنبية يعد على الأصابع.

وبعد عامين نقل الشيخ رفاعة الطهطاوي من مدرسة الطب إلى مدرسة الطوبجية واشتغل مترجماً فيها مدة عامين (١٢٤٩-١٢٥١هـ)

(١٨٣٤-١٨٣٥م) وحدث أثناء ذلك أن انتشر وباء ذريع في البلاد فهاجر رفاعة إلى طهطا حيث قام بترجمة صدر من جغرافية ملطبرون في ستين يوماً ثم عاد إلى مصر وقدمه إلى محمد على الذى كافأه مكافأة مالية سخية.

وعندما أنشئت مدرسة الألسن عين رفاعة الطهطاوي أستاذاً بها ومديراً لها، ثم ألحق بالمدرسة "قلم الترجمة" وقد بلغ عدد الكتب التي ترجمها خريجو المدرسة- كما قدره أحدهم وهو محمد قدري باشا- ألفي كتاب.

وجاء في الخطط الجديدة لعلي مبارك وصف للنهضة الثقافية التي انتعشت في هذه المدرسة، ووصف للجهود الجبارة التي بذلها رفاعه الطهطاوي في هذه المدرسة تقتطف منه هذه الفقرة: "وكان دأبه في مدرسة الألسن وفيما اختاره للتلامذة من الكتب التي أراد ترجمتها معهم وفي تأليفاته وتراجمه خصوصاً أنه لا يقف في ذلك في اليوم والليلة على وقت محدود... فكان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء أو عند ثلث الليل الأخير ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه في درس اللغة، أو فنون الإدارة والشرائع الإسلامية والقوانين الأجنبية، وله في الأول مجاميع لم تطبع، وكذلك كان دأبه معهم في تدريس كتب الأدب العالمية بحيث أمسى جميعهم في الإنشاءات نظماً ونثراً أطروفة مصر هم وتحفة عصرهم ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن الاشتغال بالترجمة أو التأليف".

وكان قلم الترجمة الملحق بمدرسة الألسن وإدارة رفاعة الطهطاوي يتكون من أربعة أقلام: القلم الأول قلم ترجمة الكتب المتعلقة بالعلوم الرياضية وكان يرأسه "البكباشي" محمد بيومي أفندي وهو من مدرسي مدرسة الطب الشرعي. والقلم الثانى قلم ترجمة العلوم الطبية وكان يرأسه اليوزباشي مصطفى وافي أفندي. والقلم الثالث قلم ترجمة كتب الأدبيات كالتاريخ والقصص والقوانين والجغرافيا وكان يرأسه الملازم أول خليفة محمود أفندي وهو من مدرسي مدرسة الألسن. والقلم الرابع قلم التركية وكان يرأسه ميناس أفندي المترجم بديوان المدارس.

وقد قام قلم الترجمة بدور كبير في نقل الكتب الغربية إلى اللغة العربية مما كان له أبعد الأثر في النهضة الفكرية في القرن التاسع عشر. وبعد سنة من تأليف هذا القلم نال رفاعة الطهطاوي رتبة "قائمقام" وكان قد نال ما يتقدمها من الرتب تدريجياً في أوقات متتابعة وفي عام ١٢٦٢هـ نال رفاعة الطهطاوى رتبة "أميرالاي" فصار يدعي رفاعة بك بدلاً من الشيخ رفاعة.

وظل رفاعة الطهطاوي ناظراً أو مديراً لمدرسة الألسن حتى أغلقت المدرسة في عهد عباس الأول وصفى حسابها، ونفى مديرها إلى الخرطوم بحجة إنشاء مدرسة مصرية هناك فسافر رفاعة إلى السودان بعد أن قضى ستة عشر عاماً في خدمة الثقافة في البلاد.

وقضى رفاعة في السودان حوالي ثلاثة أعوام في هذه المدرسة المصرية هناك، وكان عدد تلاميذها لا يزيد على واحد وثلاثين تلميذاً ثم زاد عددهم سبعة بجهد حاكم السودان فحصهم رفاعة الطهطاوى بقراءة القرآن وحفظه واعراب الأجرومية والجمل التركية، والخط الثلث والحساب ليكونوا قريباً مقدمين على أقرانهم و"قلفوات" المدرسة.

وقام رفاعة الطهطاوي أثناء إقامته في السودان بترجمة الرواية الفرنسية المشهورة "مغامرات تليماك".

وكان يعتقد "أن السودان صارت والديار المصرية في العمار كالتوأمين وفي إتباع الأثمار صنوين حتى ينشد لسان حالهما:

نحن غصنان ضمنا الوجد جميعاً ... في الحب ضم العناق
في جبين الزمان منك ومني ... عزة كوكبية الانفلاق

وقد عاد رفاعة الطهطاوى إلى مصر عقب وفاة عباس وتولى سعيد الحكم فعين وكيلاً للكلية الحربية ثم ناظراً لها فمديراً لمدرسة الهندسة وهندسة العمارة مع الاحتفاظ بقلم الترجمة ولكن هذه المدارس جميعاً لم تلبث أن ألغيت فظل رفاعة الطهطاوي بلا منصب حتى عهد إسماعيل وإعادة قلم الترجمة من جديد، فعين رفاعة عضواً في "قومسون المدارس" وهو المجلس الأعلى الذي كان يشرف على التعليم والحركة التربوية في البلاد.

هذا وقد قام رفاعة الطهطاوي بجهود كبيرة في ميدان الصحافة فعمل على تنظيم "جريدة الوقائع المصرية" ففي يوم ٢٧ من ذي القعدة عام ١٢٥٧هـ (١١ يناير عام ١٨٤٢م) صدر قرار مجلس الشورى بأن تحال المواد المناسبة من الجرائد الأجنبية وعلاوة بعض القطع الأدبية من الكتب الأدبية وانتخاب أخبار الملكية وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة على حضرة الشيخ "رفاعة أفندي".

وقد صدر هذا القرار بعد اجتماع لجنة مكونة من سعادة مدير المدارس والبك الترجمان وكاتي بك ومحمود بك مدير الايرادات وغيرهم للنظر في وضع "خطة سديدة تضمن صدور الوقائع على الوجه الأكمل كما هو الحال في الممالك الأخرى".

وقد حاول رفاعة أثناء إشرافه على تحرير هذه الجريدة أن يرفع مستوى أسلوب تحريرها، فاستعان بفئة من المحرين الممتازين أمثال أحمد فارس الشدياق، والسيد شهاب الدين تلميذ العطار ومساعده وكان رفاعة نفسه يغذي الجريدة بمقالاته الفياضة ومن ذلك مقاله في حب الوطن الذي جاء فيه "أن حب الوطن من الإيمان ومن طبع الأحرار إحراز الحنين إلى الأوطان ومولد الإنسان على الدوام محبوب ومنشؤه مألوف له ومرغوب، ولأرضك حرمة وطنها، كما لوالدتك حق لبنها، والكريم لا يجفو أرضاً بها قوابله، ولا ينسي داراً فيها قبائله".

كما قام رفاعة الطهطاوي بالإشراف على مجلة "روضة المدارس" وباشر تحريرها ابنه علي بك فهمي وصدر العدد الأول منها يوم السبت ١٥ من المحرم عام ١٢٨٧هـ (١٧ إبريل عام ١٨٧٠م). وكانت روضة المدارس تصدر مرتين في الشهر ويطبع من كل عدد ٣٥٠ نسخة زيدت بعد ذلك إلى سبعمائة نسخة "يكتب فيها من ينتخب من ذوي المعارف ويستحسن نشره بين الناس من الفوائد العلمية لأجل توسيع دائرة الأفكار، وتحريرها يكون بعبارة سهلة التناول وجيزة مفيدة".

وكتب رفاعة الطهطاوي في افتتاحية هذه المجلة يقول: "وإن جل مرغوب ديوان المدارس المصرية اعتماداً على مساندة العناية الخديوية تعميم العلوم وتتميم المصارف وانتشار الفنون وإكثار اللطائف ومداولتها بين جميع أبناء الوطن وتسويتهم في الورود على مستعذب هذا المشروع الحسن، وإبراز الوسائل المعينة على جلب قطافها بدون كبير مشقة، وإحراز الوسائط المسهلة لجذب أطرافها ولو بكثير نفقة، وإن المرام من ظهورها بهذه الصورة هو أن تنكشف للعامة مخدرات العلوم وترفع حجبها المستورة، وعلى الخصوص بين أبناء المدارس المستظلين بظلالها الوارفة المتمتعين في ساحتها بأجزل نعمة وأجزل عارفة، فإنها تكون بالنسبة لهم ولغيرهم أعم نفعاً وأعظم وقعاً، بما انطوت عليه من نشر الفوائد العلمية الفائقة، وذكر جوامع الكلم الحكيمة الرائقة، ورقائق الفضلاء العصريين ودقائق العلماء الماضين، حتى تتسع دائرة معقولهم ومنقولهم، وتمليء من زواهو الفنون وجواهر العلوم حقيبة عقولهم مع ما يزيد في رغباتهم ويبعثهم على ازدياد اهتماماتهم".

وقد أضاف رفاعة إلى ما تقدم قوله: "إن سعادة مدير المدارس جعلها ملحوظة بنظر نظارته وقد تكفل لها عدة من العلماء والفضلاء الجهابذة بإمدادها برسائل مؤلفة جديدة، وبفكرة مصنفة مفيدة، من فنون وعلوم مختلفة، ومسامرات من مستحسن الحكايات والأخبار مقتطفة، وبعض تراجم من لغات أجنبية، وإخراجها من قالب سهل من أساليب العربية".

وأن الباحث في هذه المجلة يلاحظ أنها كانت تتوخى الأسلوب القديم في تحريرها وكانت تنشر بعض المقالات الأدبية المكتوبة على غرار المقالات، وكانت هذه المقالات تصدر بعنوان "مقامة جليلة"... كما يلاحظ الباحث أن رفاعة الطهطاوي كان يتوخى العبارات المسجوعة، وأسلوب المحسنات البديعية. بيد أن هذه السمة لم تكن تلازمه دائماً، بل كان يتحرر منها أحياناً وتظهر مقالاته خالية منها، جارية على نمط الأسلوب العصري. كما كان أسلوبه في الإنشاء يختلف عن أسلوبه في الترجمة وهذا الأسلوب الأخير كان يباين أسلوبه في تحرير الخبر.

ولرفاعة الطهطاوي جهود أخرى في ميادين أخرى منها ميدان التربية والتعليم فقد لاحظ أن كتب النحو المستخدمة في المدار جارية على الأسلوب العتيق، ولا تصلح للعصر الحديث فوضع كتاب جديداً سماه "التحفة المكتبية في القواعد والأحكام والأصول النحوية بطريقة مرضية"، وحاول رفاعة في هذا الكتاب أن يبسط القواعد النحوية ويخلصها من

الشوائب والتعقيدات المختلفة، ويعرضها على شكل جداول مختلفة، حتى يتمكن الطلبة من حفظها وفهمها.

كما ألف رفاعة كتاباً في تعليم المرأة، أطلق عليه: "المرشد الأمين للبنات والبنين".

وقد يكون ظهور مثل هذا الكتاب اليوم حدثاً عادياً أما ظهوره في عام ١٨٧٣ فقد كان حدثاً غير عادي إذ تناول فكرة تعليم المرأة بالتحليل والتفصيل وضرب النماذج والأمثلة من التاريخ في وضوح وجلاء، وروى لنا أخبار كثير من النساء الشهيرات: كزوجة أبي الأسود الدؤلي العالم النحوى، وحرقه بنت النعمان بن المنذر صاحب يومي السعد والنحس في الجاهلية، وأم الحكيم التي تشبب بها الشاعر قطرى بن الفجاءة. وكتب فصلاً بعنوان "تشريك البنات مع الصبيان في التعلم والتعليم وكسب العرفان جاء فيه: ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً، ويجعلهن بالمعارف أهلاً، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأى فيعظمن في قلوبهن ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش".

بهذه الروح طفق رفاعة الطهطاوي يدعو إلى تعليم المرأة والتحرر من قيود الجهل، والخروج إلى نور المعرفة إذا اعتقد أنه إذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء، فإن المرأة

التي لا عم لها تقضي الزمن خائضة في حديث جيرانها وفيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وعندها وهكذا.

وألف رفاعة الطهطاوي كتاباً آخر سماه "مباهج الألباب المصرية في مناهج الألباب العصرية" وهو حديث عن المنافع العمومية أو المرافق العامة في البلاد، وتفسير لمعنى المواطن الصالح ومنتخب لكثير من الملح والطرائف، والبدائع واللطائف، والمنظوم والمنثور.

وقد أحصى السيد صالح مجدي في كتابه "حلية الزمن بمناقب خادم الوطن" مؤلفات رفاعة الطهطاوي فوجها تربو على سبعة عشر كتاباً في مختلف ألوان المعرفة: من رحلات إلى تاريخ إلى جغرافيا إلى أدب إلى نحو وبلاغة إلى فقه وقانون إلى غير ذلك.

ومن هذه المؤلفات الكتب التي سبق أن تحدثنا عنها: وهي "تخليص الإبريز" وهو يشتمل على رحلته إلى فرنسا و"المرشد الأمين في تربية البنات والبنين" و"التحفة المكتبية في النحو" و"مباهج الألباب المصرية في مناهج الألباب العصرية". ونذكر هنا بعض المؤلفات الأخرى ومنها "التعريبات الشافية لمريد الجغرافية" وهو ممجلد ضخم ترجمه من الفرنسية إلى العربية لتدريس الجغرافيا في المدارس المصرية و"جغرافية ملطبرون" ويبحث في الجغرافيا بحثاً تاريخياً مطولاً و"قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر". و"مواقع الأفلاك في أخبار تليماك" و"مختصر معاهد التنصيص" و"المذاهب الأربعة" و"شرح لامية العرب"

و"القانون المدني الأفرنجى" و"توفيق الجليل وتوثيق بني إسماعيل" و"هندسة ساسير" ورسالة في الطب و"جمال الأجرومية" و"نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز".

وقال رفاعة الطهطاوي يعدد أشهر مؤلفاته ومترجماته في إحدى قصائده التي أرسلها إلى حسن باشا كتخذا مصر:

علــى عــدد التــواتر معربــاتي تفــي بفنــون ســلم أو جهــاد

وملطبــرون يشــهد وهــو عــدل ومنتســكو يقــر بــلا تمــادي

ومعترفــو قـــداح فـــرات درس قد أقدحوا صداية كل صادي

ولاح لسان باريس كشمس

وهذه القصيدة على وزن وقافية القصيدة المشهورة:

لقــد أســمعت لــو ناديــت حيــاً ولكــن لا حيــاة لمــن تنــادي

وهكذا كان رفاعة الطهطاوي ينظم بعض الشعر بيد أنه لم يكن شاعراً بأصدق معاني هذه الكلمة وإن ترك لنا بعض الأشعار الجيدة كقوله في الحماسة:

يا أيها الجنود والقادة الأسود

إن أمكم حسود يعودها هامي المدمع

فكم لكم حروب بنصركم تئوب

لم تثنكم خطوب ولا اقتحام معمع

وكم شهدتم من وغي وكم هزمتم من بغي

فمن تعدى وطغى على حماكم يصرع

هذا وقد كان رفاعة الطهطاوي قصير القامة واسع الجبين متناسب الأعضاء، أسمر اللون وكان إلى جانب ذلك حازماً مقداماً.. يقول صالح مجدي في وصفه: ".. وكان كابن غطاء في لثغة الراء وكان صحيح البنية وقوى الأعصاب" وكان يعتنيبملابسه كما يقول مؤرخه صالح مجدي وكان في أوائل حياته إلى أن عاد من فرنسا يلبس اللباس العربي من الجبة والقفطان والعمامة ثم أبدل بها اللباس الإفرنجي المشهور.

وترك رفاعة الطهطاوي تلاميذ كثيرين حملوا رسالته من بعده نذكر منهم: محمد مصطفى البياع مترجم أتحاف الملوك الآلبا وأتحاف ملوك الزمان بتاريخ امبراطورية شارلكان وعبد الله أبو السعود محرر جريدة وادي النيل، ومترجم نظم اللآليء في السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك، وقناصة أهل العصر في خلاصة تاريخ مصر، والدرس المختصر المفيد في علم الجغرافيا الجديد، وغير ذلك من الكتب ومحمد عبد الرازق مترجم كتاب "غاية الأدب في خلاصة تاريخ العرب" للمستشرق سيديليو وغير ذلك من التلاميذ النابغين الذين كان لهم دور كبير في إنعاش الحركة الفكرية في البلاد.

وفي ذلك يقول أحمد أفندى عبيد مترجم كتاب "الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر" "كنت تحت إرشاد مدير مدرسة الألسن السيد رفاعة أفندي فأجاد تربيتي كغيري حتى حسن حالي واجتهادي في نيل المعالي بين أمثالي.. اقتضى رأيه المؤيد وحزمة المعضد أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ فاختار ملكاً من ملوك الإفرنج تعلو همته على المريخ وهو كتاب بطرس الأكبر، وفضله أشهر من أن يذكر لمؤلفه الشهير المسمى "فولتير" الذي يعد بين أكبرهم أعظم حجة وإن كان عن الأديان بعيد المحجة".

وانتقل رفاعة الطهطاوي إلى رحمة الله تعالى عام ١٢٩٠هـ ١٨٧٣م وله من العمر ٧٥ عاماً، وترك ابنيه أحدهما علي فهمي باشا الذى أصبح وكيلاً لنظارة المعارف في عهد عبد الله فكري باشا. وله مؤلفات تاريخية وأدركته المنية في يونيو عام ١٩٠٣ والآخر بدوي بك الذي انخرط في سلك العسكرية ووصل إلى رتبة "اليوز باشي" ثم اختاره والده لمعاونته في قلم الترجمة ثم ظل في طهطا بعد وفاة والده حتى استوفى أنفاسه الأخيرة.

جمال الدين الأفغاني

كان بطلاً عظيماً من أبطال الإسلام، وكان علماً خافقاً من أعلامه، غير أن إسلامه لم يكن يركن إلى الهدوء، أو يستسلم إلى السكون أو يقنع بالرضوخ إنما كان إسلامه كطبيعة الإسلام دائماً يميل إلى الثورة، وينزع إلى الانقلاب ولا يرضى بالذل ولا يقبل الضيم والصغار.

كان جمال الدين الأفغاني الثائر الأول الذي أيقظ الشرق من غفوته، وأقاله من عثرته، وكان الشرق قبل ظهور جمال الدين الأفغاني يخضع للدولة العثمانية، وكان الجهل متفشياً بين شعوبه، وكان الولاة غاشمين لا هم لهم إلا السعي في سبيل مصالحهم ودفع المغارم عن أنفسهم، فقام جمال الدين الأفغاني وأخذ بيد الشرق وأنضج الرأي العام لشعوب بلاده، وحرك الوعي القومي بين قواده، فخطا الشرق خطوات بعيدة خالدة في معرض التاريخ.

ويذكر المؤرخون أن جمال الدين الأفغاني قام بدور كبير في إشعال الثورة العرابية في مصر، وخصص حياته وجهوده لنشر التعاليم الإسلامية الصحيحة وتفسيرها تفسيراً عصرياً مستنيراً، يتفق مع روح النقد والبحث العلمي الصحيح، وقد نزل جمال الذين مصر عام ١٨٧١ وعمره إذ ذاك

اثنتان وثلاثون عاماً، فوجد أرضاً صالحة لبذر بذوره وغرس تعاليمه فقررت له الحكومة إعانة شهرية قدرها عشرة جنيهات وأخذ يلقى دروسه بالأزهر، فلما رماه بعض شيدخ الأزهر بالجمود اعتكف في منزله وجعل يلقيها على من التف حوله من المستنيرين، فظهرت آثار تعاليمه يسرعة، وبدأ تلاميذه ينظرون إلى الظلم والطغيان الذي يقع على كواهلهم نظرة ضيق وازدراء، وشرعوا يتطلعون إلى حياة حرة كريمة، فقامت الثورة العرابية، فكانت ثورة طبيعية ذات صبغة دينية، قامت ضد تدخل الأجنبى وافتئاته على حقوق البلاد وجل أهلها مسلمون، كما كانت لنصرة مباديء وآراء معينة يراد بها تثبيت الحكم الدستوريفي البلاد الإسلامية، وضمان مباديء الحرية والعدل والمساواة للجميع.

كان جمال الدين الأفغاني يحمل بين جنبية شعلة من الآراء الثائرة المنيرة، ويعتقد أن نيل الأمم للسعادة لا يتم إلا بصفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام. وقد دعا الإسلام إلى ذلك دعوة صريحة لإمراء فيها ولا اعتراض عليها، فقد صقل الدين الإسلامي العقول بصقال التوحيد وطهرها من لوث الأوهام، وكان جمال الدين الأفغاني يعتقد كذلك أن الأمم لا تظفر بالسعادة إلا بأن تكون نفوس الناس متحلية بأثواب الشرف، طامحة إلى بلوغ الغاية منها، وذلك بأن يشعر كل شخص بأنه يستطيع أن يسمو إلى أي درجة من درجات الكمال الإنسانى خلا مرتبة النبوة فإنها بمعزل عن المطمع الإنساني، وإنما يخص الله بها من شاء من عباده.

وقد فتح دين الإسلام أبواب الشرف أمام النفوس ورسم طريق الفضيلة لمن رامها وسعى في سبيلها، وينبغي أن تقوم في كل أمة طائفة تعلم سائر الأمة وتهذب العقول، وتكشف عن أستار الجهل، فمن أهم الأركان الدينية في الدين الإسلامي نصب المعلم ليؤدي عمل التعليم وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر. ولقد حاول جمال الدين الأفغاني دائماً أن يكون مثلاً صالحاً لهذا العلم، حتى حمل تلاميذه أعلام الحرية أينما ساروا وبعثوا تعاليم الفضيلة والشرف والنزاعة حيثما كانوا.

وهكذا كانت نظرة فيلسوف الإسلام إلى الشرق وهكذا كان هدفه يومي إلى رفعة العرب عن طريق وحدتهم وتكاتفهم، فلا غرو أن يقول "الإسلام والذل لا يجتمعان في قلب واحد" غير أنه لم يكن مغتبطاً لعدم تكاتف أبناء الشرق واجتماعهم على رأي واحد، فكان يقول: "الشرق... الشرق لقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه فوجدت أن أقتل أدوائه انقسام أهله وتشتيت آرائهم واختلافهم عن الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا ولا تقوم على هذا لقوم قائمة، ولكن اليأس لم يستبد بجمال الدين الأفغاني مرة واحدة، ولم يتسرب القنوط إلى قلبه، فكان من حين إلى حين يتفاءل بما يسمعه من أنباء المجاهدين المناضلين في سبيل تنسم نسيم الحرية والتحرر من ربقة الاستعباد"، ولعل من أطرف ما قاله في هذا الصدد قوله "بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة والأزمة تلد الهمة والمحن تخلق الرجال".

كان السيد جمال الدين الأفغاني رسول الاستقلال السياسي والانتعاش القومي. وصل إلى مصر في وقت كانت تئن فيه البلاد من الضائقة المالية حتى بلغ مجموع ما استدانته حكومتها من الدولة الأجنبية خمسة وتسعين مليوناً من الجنيهات، مما دعا انجلترا إلى فرض المراقبة الثنائية على أموال الدولة المصرية، فانتهز هذه الفرصة وأخذ يلقى دروسه على نفر من صفوة أبناء البلاد في الأزهر حيناً، وبيت العظماء حيناً آخر، والمقاهي والمنتديا تارة، أو بيته في خان الخليلي تارة أخرى، كما ولج أبواب المحافل أماسونية لنشر تعاليمه وإذاعة مبادئه...

وكتب جمال الدين الأفغاني في الصحب بأسلوب من نار تارة بإمضائه الصريح، وتارة بإمضاء "مظهر بن وضاح" في جريدة "مصر" التي أوحى بإنشائها إلى أديب إسحاق كما أوحى إلى يعقوب بن صنوع بإنشاء جريدة "أبو نضارة...".

ثم رأت السلطات الأجنبية بعد ذلك نفى جمال الدين خارج مصر، فسارت به الباخرة إلى الهند حيث ظل بها فترة من الزمن ثم أطلقت حكومة الهند سراحه، فقرر السفر إلى لندن ثم تركها إلى باريس حيث أصدر مع الأصتاذ الإمام محمد عبده جريدة "العروة الوثقى" التي أزعجت انجلترا فمنعتها من دخول الهند... وقد بقيت روح جمال الدين بمصر ترفرف على واديها في شخص الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أحد تلاميذه السيد جمال الدين الأفغاني، وممن بعث في نفوسهم الرغبة في الاستقراء، والتعمق في الوصول إلى الحقائق واضحة بدون تردد أو

التواء. وقد وجد جمال الدين في محمد عبده التربة الخصبة الحية التي تحيل تعاليمه عملاً صادقاً قوياً لا بنقص منه شيء، بل يزيد على مرور الأيام ازدهاراً ونماءاً، كما وجد محمد عبده في جمال الدين الأستاذ الذي كمل له ما كان يشعر به من نقص في ثقافته، ورغبة ملحة في الاستفادة، فأفسح أمامه أفق الإصلاح فتعددت شعبه وميادينه من دينية وخلقية واجتماعية وسياسية، فأثمرت تعاليم الأستاذ العظيم في التلميذ العظيم...

ووافت جمال الدين المنية في التاسع من شهر مارس عام ١٨٩٧ في مدينة القسطنطينية بعد كفاح طويل وجهاد لا يعرف الكلال ولا الملال في سبيل تحرير الشرق وجمع شتاته وتدعيم الأواصر بين شعوبه، حتى أشاد به المؤرخون العرب والمستشرقون مثل أ.ج. برون الذي قال عنه "كان رجلاً ذا خلق عظيم قدير العلم موفور الثقافة... لا يجد الوهن إليه سبيلاً، جريئاً مقداماً وكانت فصاحته لا تجاري كما كانت لطلعته هيبة في النفس وروعة وجلال، كما كان فيلسوفاً كاتباً وخطيباً وصحفياً، كما كان سياسياً خطيراً ووطنياً عظيماً" وغني عن ابيان أن المستشرق برون ليس في حاجة إلى أن يقول هذا كله على سبيل المجاملة أو التقرب، فقد كان عنيفاً في كثير من انتقاداته، صريحاً في ذكر المثالب والعيوب في كثير من المناسبات، جريئاً لا يخاف في سبيل إعلان رأيه لومة لاثم. وقد سجل هذا الرأي عن جمال الدين في كثير من الزهو والفخار.

ولعل خير ما نختم به هذا الفصل نبذة من خطبة، ألقاها في مجمع من الناس يحض فيها ابناء مصر على الوثوب والحركة والتخلص من يد البطش في فترة من تاريخ مصر تشبه تلك الفترة التي كنا نعيش فيها وكانت من العوامل التي اتحدت مع غيرها لإشعال الثورة العرابية وغضبة الجيش على مواطن العبث والطغيان.

.."إنكم معاشر المصريين ينزل بكم الخف والذل وأنتم صابرون بل راضون وتستنتزف قوام حياتكم التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم بالعصى والمقرعة والسوط وأنتم صامتون، فلو كان في عروقكم دم فيه كرات حيوية وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة.. أنظروا أهرام مصر. وهيا كل ممفيس... وآثار طيبة.. ومشاهدة سيوة... وحصون دمياط... فهي شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم.. هبوا من غفلتكم.. واصحوا من كسرتكم.. عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء.

محمد المويلحي

تعتبر أسرة المويلحي من أعرق البيوت الأدبية في العصر الحديث وقد نبغ فيها إبراهيم المويلحي ومحمد المويلحى الذي نتحدث عنه في هذا الفصل.

والمعروف أنه ظهرت لإبراهيم ميول أدبية منذ نعومة أظفاره فلما بلغ طور الشباب كان كاتباً كبيراً وأصدر (مصباح الشرق) التي كانت من كبريات الصحف في بداية القرن العشرين وقد حرر فيها ابنه (محمد المويلحي) الذى بزغ نجمه ولمع إسمه على صفحاتها ونشر فيها كتابه المشهور "حديث عيسى بن هشام" منجماً على فترات.

ويعتبر محمد المويلحي كأبيه دعامة قوية من دعامات الأدب في العصر الحديث، ويمتاز أدبه بصفاء الديباجة ونصاعة اللفظ، وتلاحم النسج إلا أنه يجنح في أسلوبه إلى السجع على طريقة القدماء، ويحرص على الموسيقى اللفظية حرصاً شديداً وتنساب لاصور والتشبهات في أسلوبه معبرة مثل قوله في وصف الصباح: "جلسنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم في الزمان وحديث: إلى أن صارت الليلة في أخريات الشباب، واستهانت بالأزرار والنقاب، ثم دب المشيب في فوها، وبان أثر الوضح في جلدها، فعبثت بالعقود والقلائد من الجواهر والفرائد، ونزعت من صدرها كل منضود ومنظوم، من درر الكواكب ولآليء النجوم

وألقت بالفرقدين من أذنيها وخلقت الثريا من يديها، ثم أنها مزقت جلبابها، وهتكت حجابها وبرزت للناظرين عجوزاً شمطاء ترتعد متوكئة عصا الجوزاء، وتردد آخر أنفاس البكاء، فسترها الفجر بملاءته الزرقاء، ودرجها الصبح في أرديته البيضاء، ثم قبرها في جوف الفضاء وقامت عليها بنات الهديل نائحة بالتشييع والترتيل، ثم انقلب المأتم في الحال عرس اجتلاء، وتبدل النحيب بالغناء لإشراق عروس النهار وإسفار مليكة البدور والأقمار".

فالمويلحي في هذه العبارة يشبه الليل بعجوز قد اشتعل رأسها شيباً فخلعت حليها وجواهرها، وهي هذه النجوم المتألقة المتلآلآة على صفحة السماء. ومزقت ثيابها السوداء وهي هذه الظلمة التي تلفها لفاً حتى طواها الصبح بنوره المشرق وضوئه الغامر، والصورة تمثيلية جميلة ساحرة لو نظرنا إليها من زاوية الجمال وأسلوبها عذب رقيق لوقسناه إلى الأساليب الأخرى الموجودة في هذه الفترة من الزمان.

وقد عنى المويلحي عناية خاصة بتربية النفس وتثقيفها، وكتب مجموعة من المقالات في تهذيب النفس ورياضتها، وحثها على استكمال حاجتها من الأخلاق الفاضلة والتربية القويمة ونشرت بعد ذلك في كتابه الذي أطلق عليه (علاج النفس).

ومن الموضوعات التي تناولها المويلحى في علاج النفس (الغضب) فهو يعتقد أنه كم فتح أبواباً للسجن وتصب أعواداً للصلب،

وفتل حبالاً للخنق، وبسط النطع، أو سل السيف، وأضرم ناراً للحرب، وقد يقهر العقل آفات النفس ورذائلها، إلا الغضب فإنه يستر العقل ولا يتغلب على ظهور شيء بل تراه يشق الجسم ويبرز شاكى السلاح، فيقطع أواصر القربى ويفصم عرى الإمامة والنبوة، فالغضب كالحرب أولها شرارة، ثم يكون منها ما يهول سماعه، أو يغول منظره، ولهذا يمكن العاقل باديء الأمر أن يطفيء تلك الشرارة ولكن يتعذر على أن يطفيء نار الغضب إذا هي شبت واستقرت.

ويصف المويلحي بعد ذلك مظاهر الغضب في بعض النفوس ويروي أن أحد ملوك اليونان كان يغضب على البحر إذا اهتاج واضطرب وتأخرت سفنه عن النفوذ فيه، فيقسم ليطوحن الجبال فيه حتى تصير أرضاً ويقف على الشاطيء يهدد الأمواج ويزجرها، وهذا اللون من الغضب ينشأ عن الترف والنعمة، ولذلك فإن المويلحي يدعو إلى تربية الجسم والنفس بالرياضة، والتخشن كما ينصح الغضبان أن يقف وقفة في غضبه فإذا وقفها وكان ممن يفتكر ويتدبر، خف عضبه ثم زال ولا تعتقد أنك تستطيع أن تنزعه من يد الغضب دفعة واحدة فذلك مالا سبيل إليه وإنما يزول الغضب شيئاً فشيئاً حتى يذهب أثره.

وقد تأثر المويلحي في أدبه ببعض الأعلام الذين أهدى إليهم كتابه "حديث عيسى بن هشام" وهم الأديب الوالد ابراهيم المويلحي وفيلسوف الإسلام الحكيم جمال الدين الأفغاني والإمام العالم محمد

عبده، واللغوي الشنقيطي والشاعر البارودي، وقد أرسل إليه السيد جمال الدين الأفغاني رسالة جاء فيها:

"إن تقلبك في شئون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسرتها، وخوضك في فنون الأداب يريح قلوباً علقت بك آمالها، وليس بعد الإرهاص الخارق إلا الإعجاز، ولك يومئذ التحدي. ولقد تمثلت اللطيفة الموسوية في مصر كرة أخرى وهذا توفيق من الله تعالى فاشدد أزرها، وابرم بما أوتيت من الكياسة والحذق أمرها، حتى تكون كلمة الحق هي العليا، ولا تكن كالذين غرتهم أنفسهم بباطل أهوائها، وساقتهم الظنون إلى مهوى شقائها، وحسبوا أنهم يحسنون صنعاً، ويصلحون أمراً وكن عوناً للحق ولو على نفسك، ولا تقف في سيرك إلى الفضائل.. لا نهاية للفضيلة ولا حد للكمال، ولا موقف للعرفان، وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك والسلام".

وقد احتفظ المويلحي بهذه الرسالة بخط يد الأستاذ جمال الدين الأفغاني ونشرها في صدر كتابه "حديث عيسى بن هشام" وأهداها إلى جماعة أهل الفضل والأدب لما تضمنته من طلب العلم وأدب النفس ولحسن أسلوبها في كتب المودات.

ويعتبر كتاب "حديث عيسى بن هشام" من أطرف الكتب في الأدب العربي إذ تناول المؤلف فيه نقد المجتمع والعادات والتقاليد، ورسم لنافيه صورة واضحة عن الأحوال الاجتماعية في البلاد، وعن

المحامي الأهلي، والدفاترخانة الشرعية، وأرباب الوظائف، والأعيان، والشرطة والتجار، والعمد في الريف، وما إلى ذلك من موضوعات وجاء في أوله: "بينما أنا في هذه المواعظ والعبر وتلك الخواطر والفكر أتأمل في عجائب الحدثان وأعجب من تقلب الأزمان مستغرقاً في بدائع المقدر مستهدياً للبحث في أسرار البعث، والنشور إذ التفت التفاتة الخاطف المذعور، فرأيت قبراً انشق من تلك القبور، وقد خرج منه رجل طويل القامة، عظيم الهامة، عليه بهاء المهابة والجلالة، ورداء الشرف والنبالة، فصعقت من هول الوهل الوجل صعقة موسي يوم دك الجبل...".

ثم دار الحوار بين الطرفين كما يلي:

– ما اسمك أيها الرجل وما عملك؟ وما الذي جاء بك؟

– اسمي عيسى بن هشام وعملى صناعة الأقلام وجئت هنا لا عتبر بزيارة المقابر فهي عندي أوعظ من خطب المنابر.

– وأين رواتك يا معلم عيسى ودفترك؟

– أنا لست من كتاب الحساب والديوان ولكني من كتاب الإنشاء والبيان.

– لا بأس بك فاذهب أيها الكاتب المنشيء فاطلب ثيابى وليأتوني بفرسي (دهمان).

– وأين يا سيدي بيتكم فإني لا أعرفه؟

– (مشمئزاً) قل لي بالله من أي الأقطار أنت، فإنه يظهر لي أنك لست من أهل مصر، إذ ليس من القطر كله من يجهل بيت أحمد باشا ناظر الجهادية المصرية.

– إعلم يا سيدي أنني رجل من صميم أهل مصر ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت في مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها فإذا تفضلت وأوضحت اسم شارع بيتكم وزقاقه ورقمه انطلقت إليه وأتيتك بما تطلبه...

– ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعقلك دخلاً فمتى كان للبيوت أرقام تعرف بها وهل هي (إفادات أحكام) أو (عساكر نظام) والأولى أن تناولني رداءك أستتر به حتى أصل إلى بيتي.

وبهذا الأسلوب أخذ المويلحي ينتقل من موضوع إلى موضوع ومن ظاهرة إلى ظاهرة ومن غرض إلى غرض، قائداً للمجتمع، هادفاً للإصلاح. إلا أنه عندما وصل في حديثه إلى الأهرام وقف موقف الجلال والإعظام فمضى يصفها بقوله: وقفنا هناك الإجلال والإعظام، قبالة ذلك العلم الذي يطاول الروابي والأعلام، والهضبة التى تعلو الهضاب والآكا، والبنية التي تشرف على رضوى وشمام، وتبلى ببقائها جدة الليالى والأيام، وتطوى تحت ظلالها أُواماً بعد أقوام، ويفني بدوامها أعمار السنين والأعوام. خلقت ثياب الدهر وهي في ثوبها القشيب، وشابت القرون وأخطأ قرنها وخط المشيب. ما برحت ثابتة تناطح مواقع النجوم، وتسخر بثواقب الشهب والرجوم. وتحدث حديث المشاهدة والعيان، ما تعاقب الفتيان، وتناوب الملوان، عن قدرة هذا الإنسان، في بدائع الصنع

والإتقان. وتنبيء عن قوة هذا الضعيف الضئيل، في إقامة مثل هذا الأثر الجليل. وكيف لهذا الفاني البائد، أن يصدر عنه مثل هذا الباقي الخالد. وجل صنع القدير الخالق، في تصوير هذا الحيوان الناطق..".

وقد طاف محمد بكثير من بلاد أوروبا، إما موفداً من أبيه في بعض مساعيه، وإما متفرجاً متنزهاً. وكذلك وصف مؤتمر باريس عام ١٩٠٠ في مقال بارع بديع كان ينشر منجماً في مصباح الشر. وطاف بسوريا وزار المدينة المنورة، ووصف القبر الشريف أحسن وصف وأبدعه ونشره في جريدة المؤيد. وكان يحب النكتة البارعة ويجتمع دائماً بمن حذقوا هذا الفن، ولا تكاد تسقط النكتة من فم غيره حتى يتولاه بالتخريج والمط والتلوين فما ينتهي أحد في ذلك منتهاه.

وانتقل محمد المويلحي إلى رحمة الله عام ١٩٣٠، ولا تزال كتاباته تفتن الناس فتوناً شديداً، كما لا تزال قصة ذلك الصراع الذي دار بين والده إبراهيم وبين الشيخ على يوسف، عالقة بأذهان الشيوخ من الناس. وخلاصتها أن والده إبراهيم انتقد الشيخ على يوسف انتقاداً مراً لزواجه من سيدة لا تتكافأ مع أسرته ونشر عدة مقالات في هذا الصدد، وصادف أن التقى محمد نشأت بمحمد المويلحي في حانة "وركوس" وتعدي المويلحي على نشأت وسب أباه، فما كان من الشاب الموسر إلا أن صفع المويلحي على خداه، وذاع صيت هذه اللطمة في الأوساط الأدبية في مصر، واتخذها الشعراء والأدباء مادة للسخرية والتندر على الميولحى وفى مقدمتهم الشاعر إسماعيل صبري. ونشرت المؤيد هذه

الأشعار والمقالات وأطلقت على العام الذي نشر فيه هذا الأدب وهو عام ١٩٠٢ اسم "عام الكف". ومن قول إسماعيل صبري:

إذا فـتح العـداة عليـك حربـاً   وخفـــت بـــوادر المتحزبينـــا
فقـل ارفـع عقيـرة مـن ينـادي   فـلا يجـد المـؤازر والمعينـا
أعرفـى يـا ابـن ابـراهيم صـدغاً   أخـوض بـه غمـار الصـافعينا
فـإن هـو قـد أعـارك مـا ترجـي   رأيتهمـــو أمامـــك هاربينـــا
كمـا هـرب الفتـى الصـفاع يومـاً   أمـام الكتـاب بـن الكاتبينـا

وقال كذلك بعنوان النصيحة:

يا ابن الألي رسخت أحلامهم ورست   إذا الأكـف مجـانين مهـاويس
لا تـدخل الحـان والصـفاع ثـائرة   حتـى تقـام حواليـك المتـاريس
وقـل لصـدغك يسـتقبل وفودهمـو   بالبـاب انهمـوا قـوم منـاحيس

وقال كذلك:

قفـاك محمـد نعـم السـلاح   إذا التـف بالعسـكر العسـكر
وصـدغك إن نقـر النـاقرو   ن عليـه يـرن ولا يكسـر

ومن هنا شب الخلاف بين أسرة المويلحي وأسرة الشيخ على يوسف الذي لم يدخر وسعاً في التحرش بالمويلحي على صفحات جريدته "المؤيد" فكان ينشر المقالات تلو المقالات لمهاجمة "المويلحيين" الصغير والكبير.

وإن هذه الحادثة قد أشبعت الصحف بمقالات نزالية جريئة كانت حديث الناس في تلك الآونة من الزمان. ولا تزال مادة خصبة لمؤرخى تاريخ المقابلات النزالية للباحثين الآن.

علي يوسف

من الصحف الخطيرة التي أثرت تأثيراً قوياً في قيام الحركة الوطنية في مصر وأنها حق الوعي القومي عقب الاحتلال جريدتا "المؤيد واللواء" وكان يحرر المؤيد شيخ وقور تبدو عليه ملامح المهابة والوقار، غير أن نفسه تفيض إحساساً، وتجيش حماساً. ألا وهو الشيخ علي يوسف كما كان يحرر جريدة "اللواء" فتى ملتهب العواطف متقد المشاعر، عصبي المزاج، سريع الانفعال. ألا وهو الشاب مصطفي كامل وبينما كانت "اللواء" تحسن أن تثير العواطف وتهيج المشاعر وتحمس الجماهير كانت "المؤيد" تحسن أن تعرض القضايا عرضاً هادئاً رزيناً كما تحسن أن تنقذها وتناقشها مناقشة صحيحة سليمة، وتحارب خصومها بسلاح المنطق والبرهان.

تلك هي الخصلة البارزة التي ميزت الشيخ يوسف عن كاتب آخر من كتاب الحرية في أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين وهو مصطفى كامل. فلا غرو أن يجد فيه كثير من النقاد الرائد الأول الذي دعا إلى الحرية وطالب بها مطالبة مقرونة بالمنطق، مدعمة بالحجج موطدة بالبراهين. ولعل أشهر مقالات كتبها الشيخ علي يوسف في هذا الصدد مقالات (قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء) فقد حدث أن سافر اللورد كرومر إلى انجلترا ولكنه سرعان ما عاد منها إلى مصر وكانت عودته يوم الأربعاء ٢١ أكتوبر عام ١٩٠٦ فانتهزت جريدة المؤيدة

عودته وأخذت تغمره بمقالات تنقد فيها سياسته، وتجلو على العالم صفحته فعرفت مقالاته في الوسط الصحفي بمقالات "قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء".

وقد نشر الشيخ علي يوسف مع هذه المقالات رده على خطبة اللورد كرومر فجاء رده مفحماً لسياسته مسجلاً لحق مصر في حياة حرة كريمة.

وهكذا كانت الصحافة في يد الشيخ علي يوسف سلاحاً ماضياً يشهره في وجه الاحتلال، وصفحة منشورة بيضاء يسجل فيها مخازي الاحتلال فإذا هي سوداء للناظرين. تأمل ما يقوله في مقاله حرية– مراقبة أو تقييد "وخلاصة ما يقال عن أهمية الصحافة الوطنية في مصر أنها– على علاتها– السلاح الوحيد الذي يأباه الاحتلال فأنت تعلم أن الاحتلال استولى على كل نفوذ في كل دائرة من دوائر الأحكام بواسطة المستشارين، ولم يبق حراً في مصر غير الصحافة، فهي موضوع أمل المصري في شدته وكربته، ينقل بواسطتها شكواه، ويعلن رضاه...".

ولقد استطاع الشيخ علي يوسف بواسطة هذه الصحافة أن ينقل شكواه، ويعلن رضاه، وينادي بالحكومة الذاتية، ويرى أن الصوت الذى يسمعه اللورد كرومر بعد رجوعه من مضيفه وهو صوت مصر التي تنشد لنفسها حكومة دستورية نيابية ليس صوتاً جديداً لم بسمعه اللورد من قبل، وليس بخاطر طاف الآن على نفوس المصريين، وليس مطلباً تنزع

إليه مصر محاكاة للفرس أو الروس أو الترنسفاليين، وليس تشبهاً بالإنجليز والفرنسيين والألمان وغيرهم، بل هو ميل قديم في المسلمين فطروا عليه منذ نشأتهم، لأن الشورى من قواعد أحكام الشريعة الإسلامية في إدارة شئون الأمة. الشورى التي وجدت في الإسلام قبل أن توجد في انجلترا الدستورية المنظمة، وإذن فمصر تطلب في عام ١٣٢٤هـ نظاماً وضع أساسه الإسلام قبل وجود التاريخ الهجري في حساب العالم، فإذا كان الإنجليز صادقين في رغبتهم في الإصلاح فليستعينوا بمستشاريهم الذين لا يعلمون شيئاً عن مصر وأهل مصر، ولكن بمجلس نيابي يضم خيرة المصريين العارفين ببلادهم، والمدركين لوجوه الإصلاح التي تحتاج إليها بلادهم. فإذا شاء المصلح أن يكون مصلحاً إلى الأبد، فليترك وراءه نظاماً صالحاً لا يقدر المفسدون بعده أن يهدموه.

ولا شك أن المتتبع لتاريخ التعليم في مصر يرى كيف أنه استهدف فترة طويلة لسياسة الإنجليز الجائرة الملتوية بإنشاء الكتاتيب في البلاد تمويهاً للرأى العام، فانطلق الشيخ علي يوسف يكشف هذه اللعبة للناس، ويبين أنها أقرب إلى الرياء منها إلى الشرف، وإلى الخداع، منها إلى الحق. والخلاصة، أن سياسة التعليم في نظر هذا الكاتب الحر غير مفيدة لتكوين أمة ينبغ فيها العلماء في كل فن. ولا هي سائرة للأمام قدماً، لأن التقدم في المعارف والعلوم يتوقف على كون نظام التعليم كافياً بحاجات الأمة على اختلاف طبقاتها.

وكثيراً ما كان يسخر الكاتب الحر من صداقة الإنجليز المزعومة لمصر، ويضرب لذلك مثلاً فقول: "رأى بعض الحكماء رجلين لا يفترقان فسأل عنهما فقيل له: إنهما صديقان. قال: فما بال أحدهما غني، والأخر فقير" ثم يلبث الكاتب الحر أن يستطرد قائلاً مخاطباً اللورد كرومر: فما بال اللورد كرومر الذى هو ثمرة أبعد وطنية في العلم بنيت على أشرف مباديء التضامن الجنسي يريد لنا أو المذاهب في الوطنية الذاهبة بالمصريين إلى الفقر المدقع من خيرات بلادهم، ويريد أن تكون للأجنبي على طرف التمام. فما بال انجلترا بعد أن كررت مواعيدها الحلوة المغرية تركت عميدها العظيم في وادي النيل يختم أعماله بالتصريح بأن الاحتلال باقي فيه، وأن وطنية أهله يجب أن تكون كشكولاً ليس له في مجموعات الأمم مثيل؟

وهكذا كانت كتابة الشيخ علي يوسف دعوة إلى الحرية يسيطر عليها العقل، ويكتنفها النهي، ويشيع فيها الاعتدال في قوة حجة، وقرب ماخذ، ونصاعة بيان... وهكذا تدفق المؤبد أو "تيمس الشرق" كما كانوا يدعونه بمثل هذه المقالات التي أحدثت دوياً خطيراً، وصدى عظيماً في أرجاء مصر والشرق العربي من أدناه إلى أقصاه.

وقد قامت في عهد الشيخ علي يوسف محنة بين المسلمين والأقباط فتناولها كاتبنا الحرب بقلمه السيال وعالجها بأسلوبه المؤثر الدفاق، واستطاع ببراعته أن يلم الشعث، ويجمع الشمل، ويسير دفة الأمور إلى الوئام والسلام...

ولم تقف جهود الشيخ علي يوسف على جريدة المؤيد اليومية فحسب التي كانت تطبع على نمط جديد، وفي حجم أكبر بواسطة آلة الطباعة الكهربائية "روتاتيف" التي تطبع بواسطة صناعة جديدة غير الحروف المعتادة، وكانت تنجز في الساعة الواحدة طبع إثنى عشر ألف نسخة من الجريدة ذات الثمان صحف، مقطوعة، ملصوقة، مطوية، معدودة، لم تقف جهود الشيخ علي يوسف على هذه الجريدة اليومية فحسب، إنما كان له المؤيد الأسبوعي العربي الفرنسي، وكان الأول يصدر يوم الجمعة من كل أسبوع، أما الثانى فكان يصدر يوم الأحد، وكانت تنشر فيهما أجود المقالات التي أطلع عليها القراء في المؤيد اليومي.

وهكذا تشعبت جهود شيخ الصحفيين الأحرار، غير أنها التقت عند نقطة واحدة، واجتمعت عند بؤرة واحدة، ألا وهي الجهاد الوطني في سبيل الاستقلال، ونيل الحقوق الوطنية كاملة، غير منقوصة، وتطهير البلاد من المحتل الغاصب، وتنسم نسيم الحرية، في جو حر طليق.

عبد الله النديم

لم يكن ينتمى إلى أسرة معروفة بالغنى والعز ولم يكن يملك من متاع الدنيا إلا الكفاف.. غير ان نسبه كان ينتهي إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه، وهذا ما كان يجلو عنه همه وينفس عنه كربته كلما أظلمت الدنيا، وضاقت في وجهه الأيام.

ولم يكن هذا النجار البسيط في فترة من فترات حياته، أو هذا الخباز الفقير في فترة أخرى من فترات حياته.. لم يكن يدرى أن ابنه عبد الله النديم سيكون له حظ عظيم في تاريخ الإسلام وفي تاريخ الوطن العزيز، فقد أصبح فيما بعد بطلاً عظيماً من أبطال الإسلام، وخطيب الثورة العرابية التي قامت في وجه الظلم والطغيان.

وتعد سيرة حياة النديم من أعجب السير في تاريخ البشرية، فقد بدأ حياته فتى بتسكع في الطرقات ويختلط بالدهماء... يستمع إلى السوقة وهم يتحدثون أو إلى الخاصة وهم يتناقشون. ويغشى الموالد العامة حيناً ويزج بنفسه بين طائفة (الأدباتية) إن صح هذا التعبير حيناً آخر ويقلدهم في حركاتهم.. ويحاكيهم في نداوتهم حتى انعكست تلك الصورة على نفسه وتراءت في حسه، وتجلت في شعوره وحديثه.

وترك عبد الله النديم هذه الفترة العاطلة من سنى حياته ليتعلم فن الإشارات البرقية، غير أنه لم يطل السير في هذا المضمار، فاتصل بأحد أعيان المنصورة ففتح له متجراً يبيع فيه الصائب والمناديل، غير أن عبد الله النديم كان يبيع في هذا المتجر شيئاً ليس بالعصائب ولا المناديل وليس بنظير ما يبيعه التجار في أمثال هذه المتاجر. كان يبيع الحكمة والأدب، فكان يجتمع بمتجره نفر غفير من المتقفين يتجاذبون أطراف الحديث في الشعر والفن والأدب ويتناولون النقد في أسلوب لا يخلو من الصرامة والعنف.

ولم تلبث طبيعة النديم الأدبية أن طغت عليه، فلم يستطع عنها انصرافاً.. سافر إلى الاسكندرية حيث اشترك مع أديب إسحاق وسيلم النقاش في تحرير صحيفتي (المحروسة) و(العصر الجديد) فكان أسلوبه من العوامل الفعالة في انتشار هاتين الجريدتين واتساع نفوذها.

وكانت الجمعيات السرية في ذلك الوقت تتكون بكثرة في الخفاء الانقضاض على نظام الحكم الفاسد في تلك الفترة من التاريخ، فالتحق عبد الله النديم بجمعية سرية هي جمعية (مصر الفتاة)، وهي غير الجمعية التي يعرفها هذا الجيل... وكانت تهدف إلى نشر التعليم وتنقد في عنف سياسة إسماعيل، وما زال عبد الله النديم بهذه الجمعية بث آراءها في كل مكان، ويوزع أفكارها في كل بقعة، حتى أخرجها من السر إلى العلن، معتمداً على شخصيته القوية، وأعلن النديم وزملاؤه أغراض هذه الجمعية

ومنها إنشاء مدرسة لتعليم الفقراء مجاناً ومنها بث الروح الوطنية، وإشعال الحركة القومية بين الشبيبة حتى يظفروا بحقوقهم كاملة غير منقوصة.

ثم ظهرت بوادر الثورة العرابية فبرزت مواهب عبد الله النديم الخطابية بشكل واضح في كل ناد. ويرتجل الكلام وارتجالاً. ويتدفق كما يتدفق البحر.. في أسلوب يستنهض الهمم، ويثير العزائم، ومن بديهة كأنه يقرأ منها في كتاب، وكأنها تستوحي الغيب فليس بينها وبين الغيب حجاب..

بهر عبد الله النديم الناس بلسانه الذرب المنطبق. وبيانه الساطع ففكر رجال الثورة العرابية في ضمه إلى صفوفهم فكان انضمامه إلى الثورة العرابية وقوداً لها، إذ زادت به ضراماً. وزيتاً لها أصبحت به سراجاً وهاجاً.

كان صوت عبد الله النديم قوياً يجلجل في الآذان.. ويقرع.. الأسماع.. في نبرة. معبرة، وأداء بديع.. وكان عبد الله النديم حسن الإشارة، رابط الجأس، ساكن الجنان.. متماسك الأعصاب قوى الحجة.. دامغ الرأي. يلبس لكل حالة لبوسها. ويسوق العبارة القوية الجادة حيناً.. والملحة الطريفة والنادرة المضحكة حيناً آخر. فتمثلت فيه سمات الخطيب المصقع الذي يحرك أزمة الأفئدة إلى هوى وكيفما بشاء.

وانتقل عبد الله النديم بخطاباته إلى الميدان يحرض الجنود على القتال، كما انتقل إليه بصحيفة "الطائف" وهو اسم اقترحه عليه أحمد عرابي تيمناً بطائف الحجاز ومتفائلاً بانتشارها في البلاد بدلاً من اسم الجريدة القديمة (التنكيت– والتبكيت) وسببه السخرية من عادات المصريين وأخلاقهم وتبكيتهم على التمسك بها والنزوع إليها.. وقد نقلت عن صحيفة الطائف أكثر صحف القاهرة أخبار الحرب وتفاصيلها ومقالات النديم وآرائه، وكذلك فصوله التيي كان يكبتها في تاريخ إسماعيل وفى النقمة عليه والسخرية منه، كما قال في (سلب الأملاك من الملاك).

وقد كان تعاون الطائف في هذه الحملة وفي الوقوف إلى جانب العرابيين جريدة (المفيد) لمحررها حسن الشمسى الذى أبلى بلاء عظيماً في ميدان الجهاد الوطني وفى إثارة الشعور العام ضد الانجليز.

وكان من أهم وظائف "الطائف" جريدة عبد الله النديم الدفاع عن الثورة ورجالها، وقد احتفى بها رجال الثورة وأنصارها فاشترك لها النواب بمبالغ كبيرة وأصبحت لهم لساناً شديد العنف حتى اضطر الأستاذ الشيخ محمد عبده وكان مديراً للمطبوعات في ذلك الوقت إلى تعطيلها للهجتها العنيفة القاسية.

وقد اختار مجلس النواب وقت اندلا ع الثورة العرابية جريدة "الطائف" الغراء لنشر ما يرمي إبداءه من الآراء والخواطر والتقارير وأصبحت الصحيفة الشبيهة بالرسمية (وجريدة الطائف على حد تعبير جريدة مصر جديرة بهذا الاختيار فهي موصوفة بالوطنية، معروفة بصدق النية منتشرة نافذة الكلام.. خطيرة.. مرعية المقام).

ومما كتبه عبد الله النديم في الطائف يستثير الهمم ضد الأعداء قوله "إلى متى توقظنا الحوادث ونحن رقود. وحتام تدهمنا المصائب ونحن قعود، وكيف ينادينا الوحي لنحميه، فيجد آذاننا صماء. أم كيف يشير إلينا الوطن لنحفظه من غوائل الطمع. فيرى أعيننا عمياء".

ومــا منعــت دار ولاعــز أهلهــا مــن النــاس إلا بالقنــا والقنابــل

وهكذا كان عبد الله النديم. يوقظ الهمم ويستحث النفوس حتى غدت خطبه وكتاباته أثراً عظيماً من آثار الثورة العرابية جديراً بأن نرجع إليه ونستوعبه في تلك الفترة من تاريخ مصر التي خلدها الجيش بوثبته الفتية الناهضة وثورته القوية المباركة حتى صرح أستاذه جمال الدين الأفغاني "بأنه ما رأى مثل النديم طول حياته في توقد الذهن وصفاء القريحة. وشدة المعارضة، ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بأزاء معانيها، إذا خطب أو كتب".

تلك هي صور من شخصية عبد الله النديم. تلك الشخصية الشعبية العظيمة التي ساعدتها كثرة اختلاطها بالناس واشتغالها بشتى الصنائع والحرف أن يكون لها حظ عظيم من النجاح والنبوغ كما كان لهيبتها الأدبية الفذة أثر كبير في طرق أساليب الجهاز الوطنى خطابة وكتابة وشعراً حتى قال بعض معاصرى النديم" إن شعره أقل من نثره.. ونثره أقل من لسانه ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا".

مي زياده

تعتبر الكاتبة الأديبة مي زيادة من أبرز شخصيات المجتمع العربي، ومن الرائدات الأوائل اللائي مهدن لوجود أدب نسائي في البلاد العربية، وقد فقد المجتمع العربي بوفاتها منذ سنوات طوال ركناً ركيناً من أركانه، ورغم أن مي انتقلت إلى رحمة الله منذ أكثر من عشر سنوات إلا أن كتبها لا تزال من أمتع الكتب الأدبية. ولمي بحث شيق عن عائشة التيمورية الشاعرة أعادت إحدى دور النشر طبعه منذ شهور، كما كتبت فصولاً عدة من المقالات تحلل فيها مشاكل المجتمع العربي، وتدعو المرأة العربية إلى التحرر من التقاليد لابالية، والعادات العتيقة دون أن تفرط في حق نفسها وحق وطنها وحق دينها.

وكنت قد أشرت في بحث لى أن عدداً كبيراً من الشعراء تدلهوا بحب الكاتبة في زيارة، وحدث أن قابلت الأستاذ الصحفي الكبير على أمين فسألني عمن كانت تحب مي. والواقع أنها لم تكن تحب أحداً معيناً، إنما كانت توزع حبها على الناس جميعاً، وكانت أشبه بالزهرة العبقة التي تنشر أريجها في كل مكان، ويحاول كل من يدنو منها أن يشرح صدره بعبيرها، وكان صالونها الذي تعقده في جريدة الأهرام كل يوم ثلاثاء مجتمعاً أنيقاً من المجتمعات العربية الحديثة، يلتقي فيه أقطاب الفكر والأدب أمثال إسماعيل صبري، وطه حسين، وخليل مطران، وأحمد حسن الزيات، وأنطون الجميل وغيرهم، وكان كل واحد منهم

يتمنى أن يظفر بعطفها ولطفها في مجاذبة الحديث معها، ومناقشتها في شتى الموضوعات الاجتماعية والأدبية، ولم يكن أقطاب الأدب فحسب من رواد مجتمع مي، إنما كان من رواد مجتمعها كذلك أقطاب العلم والفلسفة ونذكر منهم الدكتور الجراح على إبراهيم، والدكتور محجوب ثابت، والدكتور شبلى شميل صاحب البحوث المستفيضة في النشوء والارتقاء وكثيراً ما كان يخفف الشيخ عبد العزيز البشري روح الاجتماع بنكتة طريفة، أو نادرة عذبة، وكان ينتقد تقاليد المجتمع ونظم الزواج والخاطبة، وتحضير الجهاز، ومواكب الأثاث على "عربات الكارو" فيثير في الاجتماع الفكاهة والسخرية ويخرج أحد الكتاب لينشر في الصباح مقالاً شديد اللهجة ينتقد فيه هذه النظم السقيمة في الزواج.

وكان أستاذ الجيل لطفي السيد يحضر اجتماعات مي في صالونها الأدبي المشهور ونصحها ذات مرة أن تقرأ القرآن الكريم لتستوعب ما فيه من الحكمة والجمال والجلال فلم. تجد مي غضاضة في قبول نصيحته وعكفت على قراءة القرآن قراءة الباحث المتمعن، وتعترف مي بأنها منذ ذلك الوقت وضعت يديها على ألوان جديدة من البيان العربي لم تتح لها قبل هذه التلاوة. وساعدتها هذه الألوان على تطعيم كتاباتها بغذاء نافع مفيد.

ولم تكن مي تحب أن تكون ملكاً لرجل واحد، تكرس له حياتها، إنما أرادت أن تكون كشمعة العباس بن الأحنف تضيء للناس، ولا تحفل بنفسها حتى تذوي وتذوب، وقد تركت من ورائها صرعى كثيرين من

الأدباء والشعراء تدلهوا بحبها، وبثوا إليها مشاعرهم وأحاسيسهم، ونذكر منهم يعقوب صروف وأنطون الجميل، وجبران خليل جبران، وقد صدر في بيروت كتاب يتضمن الرسائل بين جبران ومي، ومنه يتضح لنا الشوق المتأجج الذي كان يضطرم في صدر جبران، كما نشر الأستاذ أنور الجندي بحثاً عن غرام الأدباء وحياتهم الخاصة، وتبعه الأستاذ عباس خضر ببحث آخر، وقد تعرضا في كتابيهما لحياة مي، الخاصة، وكتب أنطون الجميل إلى مي يقول: "يلذ لي يامى أن أخاطبك باسمك مجرداً من الوصف واللقب. لأن كل وصف قليل إذا ما قيس لصفاتك، وكل لقب ضئيل إذا ما اقترن باسمك، الساعة الآن متأخرة من الليل، ولا يسعني إلا الانتقال بالفكر إلى تلك الشرفة الشاهقة ذات الفضل العميم على في مثل هذه الساعة، فأقف طويلاً عن الكتابة ضائعاً في بحار الذكريات بل إن الكلمات تعصاني فأبحث عنها فلا أجدها...".

وقد كنتم أنطون الجميل حبه بين جوانح صدره، وإن كان يبدو في محضرها زائغ الفكر متقلب النظرات، مشتت البال، ويظهر أنه انصرف عن الزواج لفشله في إرضائها.

ولم يشتعل قلب أديب من الأدباء بحب مي كما اشتعل قلب مصطفي صادق الرافعي، وقد كتب إليها الرافعي مجموعة كبيرة من رسائله وردت عليه ذات مرة بقولها: "سأدعوك أبي وأمي متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر.. وسأدعوك قومي وعشيرتي.. أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً محبين، وسأدعوك أخي وصديقي أنا التى لا أخ لي ولا

صديق، وسأطلعك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة، أنا التي تتخيل فيك قوة الأبطال ومناعة الصناديد...".

وكان بين الرافعي وبينها حريق من الحب على حد تعبيره... وكان وجهها هو الابتسام وروح الابتسام، وفكرها هو العقل وروح العقل، وجسمها هو الإغراء وروح الإغراء، وهو الفتنة وروح الفتنة وهي بهذا كله الحب وروح الحب! وكانت وجوههما تتلاقى من نظرة تصافح نظرة، وابتسامة تعانق ابتسامة وقلب يضم قلباً!

وهكذا أرسل الرافعي الدموع لمي كما سكب غيره الدموع لها... ولكنها كانت لا تؤمن القيد الحديدى للرجل.. ورفضت أن تتزوج الرافعي عندما طلب الزواج منها.. وتركت قلبه يتحطم.. وروحه تتناثر كالنسيم في يد الرياح..!!

كما كتب إليها أحمد لطفي السيد من قريته يقول "ما أسعد حظ الشعراء، ما زال طيفك يسري معي وكلانا تغمره أشعة القمر الباهتة، ويظرفه السكون الشامل حتى وصلت البيت، وكأن الطريق قد انطوى تحتي فلم أحس طوله، والوقت قصر فلم أشعر بإجزائه، بل ندمت على أني أتبعت الطريق المستقيم وكان أولى أن أقطع المسافة خطاً منكسراً يطول به وقت الائتناس بك".

أشكرك وأرجوك ألا تظني أن طيفك الرقيق الحاشية، الجريء القلب الذي ينزل على ليسايرني وسط الخلاء المخيف في الليل، لا

تظني أنه يغني غناء قلمك فتتباطئين في رد كتابي كما عودتني بعض الأحيان، فإن فعلت، فما أنا ممن يسكت على هضمة حقه، وأنا أعرف كيف أخذ حقي وزيادة..!".

مصطفى عبد الرازق

في الخامس عشر من شهر فبراير ١٩٤٧ انتقل الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى رحمة الله تعالى فانطوى بموته علم خفاق من أعلام الإسلام في الأدب والفلسفة في العصر الحديث. وقطب ممتاز من أقطاب المفكرين في مصر والعالم الإسلامي. ونحن إذا ذكرنا فضل السيد جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على الشرق والعروبة والإسلام ذكرنا فضل الشيخ مصطفى عبد الرازق عليهم جميعاً. وقد كان خير معلم ومؤدب لشباب الجيل بل إن كثيراً من الأدباء والمفكرين والمبرزين في ميادين الحياة يدينون له بفضل عظيم. وقد احتضنت الجامعة المصرية الشيخ الكبير وعينته أستاذاً للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب وانتهي به المطاف إلى أن أصبح وزيراً للأوقاف ثم أنعم عليه برتبة الباشوية تقديراً لجهوده ولكنه لم ينس تلاميذه ولا مريديه وظل رئيساً فخرياً للجمعية الفلسفية المصرية التى أخرجت مؤلفات شتى واستأنفت النهضة العلمية في الشرق وحاولت أن تجعل مسائل الفلسفة في متناول الجميع وضرورية لكل مثقف.

وقد كتب الشيخ مصطفي عبد الرازق عن الإمام الشافعي وكتب عن الصوفية والفرق الإسلامية وكتب عن الناحية الفلسفية لابن الهيثم وكتب عن الشيخ محمد عبده وكتب عن الدين والوحي والإسلام وكان يرى أن حيرة العلماء في تحديد عناصر الدين والخلاف على وضع

تعريف يعرب عن حقيقة كل أولئك يدل على إن العلم لم يكشف الحجب عن الدين وأسراره. وربما كان من غرور العقل البشري أن يزعم القدرة على هدم بناء متين متغلغل الأسس في الفطر الإنسانية من قبل أن يعرف مواد هذا البناء، أو يعرف كيف تم بناؤه. كما كان يرى أن رأى المتكلمين في أبعد صوره عن الروحانيات هو الذائع في البلاد الإسلامية في العصور القريبة حتى جاء الإمام محمد عبده فقرر أن الوحي عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة. والأول يتمثل بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت.

ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستبقيه النفس وتنساق إلى ما يطلب على شعور منها وهو أشبه بوجدان الجوع... والعطش والحزن والسرور.

وقد تعلق الشيخ مصطفى عبد الرازق بالبهاء زهير وعرف شعره وهو صبي يقرأه على والده رحمه الله فيما يقرأ من كتب الأدب في بعض الليالي. وكان يتأتى لعقله الناشيء أن يستشف معانيه من ثنايا ألفاظه اللطيفة على حين تقوم الألفاظ والتراكيب حجاباً دون المعاني حيناً في الشعر وأحياناً في النثر، وكان موقع وزنه الموسيقى ونغمه يستثير في نفسه أريحية وطرباً، حتى تأثر بذلك ذوقه، فهو يهفو في البيان إلى نوع من الأنغام والوزن. وشغف الشيخ مصطفى عبد الرازق كذلك بطريقة البهاء زهير في ديوان إنشاء الدولة الأيوبية وابتداعه لنمط جديد خرج به عن التقاليد المرسومة في صور المخاطبات والأساليب فهو موجز لا

يحب الإطناب وهو مقتصد في زينة اللفظ، وهو نزاع إلى الوضوح والبساطة فلا يرضى كثرة المجاز والكناية وهو عدو للجمود على نظم في البيان تقتل مواهب الإبداع والتفنن.

وقد أعجب مصطفى عبد الرازق بشعر البهاء زهير وإيغاله في المصرية في ذوقه ولهجته كما أعجب به حين قال:

سقى وادياً بين العريش وبرقة	من الغيث هطال الشآبيب هتان
وحياً النسيم الرطب عنى إذا سرى	هنالك أوطاناً إذا قيل أوطان
بلاد متى ماجئتها جئت جنة	لعينك منها كلما شئت رضوان
تمثل لي الأشواق أن ترابه	وحصباءها مسك يفوح وعقيان
فيا ساكني مصر تراكم علمتم	بأني مالي عنكم الدهر سلوان
وما في فؤادي موضع لسواكم	ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن

لم يغير الشيخ مصطفى عبد الرازق زيه الأزهري طيلة حياته وظل محتفظاً به، محافظاً على وقاره، غير أنه كان أثناء هذا كله تقدمي الآراء حديث الفكر تساير أراؤه موكب الحضارة الحديثة ولكنه كلما دخل المدائن تمثل للمناصب وما تستلزمه من مداهنة الرؤساء وقلة الصراحة والمرونة في الرأي والعقيدة كأن أهل المدن كلهم موظفون تحدد آمالهم وأعمالهم دائرة ضيقة. فكان الشيخ مصطفى عبد الرازق يتوق إلى الريف ويحن إلى الحياة بين أحضان ومروجه الخضراء الممتدة على امتداد

الصر وكان يقول "إنا نحن الفلاحين أبناء الفلاحين نبتنا في المزارع وحول جداول المياه نستنشق الهواء طليقاً لا يحبسه شيء ونستقبل الشمس سافرة ليس من دونها حجاب ونرى حيث سرنا أهلاً وعشيرة إذا مرض أحدهم عدناه، وإذا مات شيعناه وإذا مسه ضر مسنا، وإذا غضب نهضنا معه غضاباً لا نسأله على ما قال برهاناً...".

وقد سافر الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى أوروبا لأول مرة عام ١٩٠٩ وكان يومئذ فتى غض الإهاب من صدر الشباب لم ير ما وراء القاهرة من جهة الشمال ولم يعرف البحر تجري سفائنه في موج كالجبال ولم يسكن في غير داره، ولم يعش إلا بين أهله ولم ينطق إلا لغتهم، وكان من السذاجة ورقة القلب وفرط الحياء على ما كان عليه، ناشئة الأزهر في ذلك الزمن.

وقد سافر الشيخ مصطفى عبد الرازق مرات عدة بعد ذلك إلى أوروبا، ونهل من معين الثقافة الأوربية وجال بين بلدان أوروبا وطاف بين ربوعها... وانتجع في مشافيها فزار أكس ليبان وجرينو بل في فرنسا حيث يجرى نهر الأيزر من تحتها وتحيط بها الجبال الرائعة في زينتها، وزار معرض الفحم الأبيض مراراً فرأى آلات كهربائية وأدوات بخارية ورسوماً جغرافية وأشياء صناعية ثم زاره بالليل وهو لجة من أنوار ومن جماهير...

وإذا كانت باريس في نظر ماريفو الدنيا وبقية الأرض ضواحيها... فهي في نظر مصطفى عبد الرازق موجود حى تنبعث الحياة من أرضه وسمائه.. ورجاله ونسائه. عظيمة بكل ما نحتمل هذه العبارة من معاني الحياة.. والجمال والجلال والذوق والفكر والانسجام والخلود...

وقد زار مصطفي عبد الرازق الحي اللاتيني ومجمع الكوليج دي فرانس، والسوربون والبانيتون وطوف حول الجانعة فإذا طلاب وطالبات يزعم العطلة... يغدون ويروحون تفيض ملامحهم بالكتب والأوراق كما تفيض وجوههم الفتية بالنشاط والبشر، وطوف مصطفى عبد الرازق حول بركة لوكسمبرج فقال: "ليس ماء ذلك الذي يخرج في بركة لوكسمبرج ولكنه ذوب... ابتسامات ودموع... رويدكم أيها الأطفال العابثون بالماء".

وزار الشيخ مصطفى عبد الرازق انجلترا ولم يكن رآها من قبل ولم يكن قد شهد حياة الشعب الإنجليزى، وكان قد بقيت في ذهنه صورة للجنود الاستراليين يسيرون سكارى في شوارع القاهرة فحسب لندن تفيض بصرعي الباسو والويسكى ولكنه عندما وصل إلى انجلترا وطاف في أرجاء لندن غير رأيه، وحول فكره، فليس الشعب الإنجليزي من أقل الشعوب ولعاً بالشراب ولكنه من أقل الشعوب ولعاً بالسكر. وأعجب الشيخ مصطفى عبد الرازق في انجلترا بنظام البوليس وأخلاق رجل البوليس الذي يرشدك في أسلوب مهذب رقيق ولا تفوق عليه فائتة لشدة حرصه ودقته وحسن حزمه في معالجة الأمور...

وجاس الشيخ مصطفى عبد الرازق بين حدديقة (هايد بارك) فافتتن بها واستهواه نظامها (فهايد بارك) رئة لندن كما يسمونها، في رحابها مجال الهواء الطلق يتنسمه أولئك المسجونون في المصانع والحوانيت، وبين الأبنية الشامخة، وفي رحابها أيضاً متنفس لجانب اللهو والتنبسط المظوم في انجلترا بتقاليد الاحتشام والنظام واللياقة.

وسرح مصطفى عبد الرازق نظره بين أكناف "هايد بارك" فإذا هي حديثة ذات سياج حديدي تشقها فجاج ومناهج وميادين فيها رياض وغياض وفيها بحيرة ظريفة لمن شاء النزعة في الزوارق. وفوق مروجها كراسي مصفوفة وفي كل ناحية جموع تتبعها جموع منهم من يجلس متفرجاً ومنهم من يمشى متريضاً ومنهم من يطيب له الرقاد فوق تلك النمار الخضراء...

وقد استرعى انتباه مصطفى عبد الرازق منظر عايد بارك يوم الأحد... وقد انطلق المحاضرون يلقون محاضراتهم في تدبير الصحة علاج الأمراض أو فى السياسة والاقتصاد أو في الأدب والفن أو في الدين والكتب السماوية أو فى غير ذلك من العلوم والمعارف.

وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق يشعر بلذة قصوى في التجول في أوروبا، ويضم إلى عقله معارف جديدة ومنافع شتى فينطلق من إساره ويطلق نفسه على سجيتها في التفكير والتعبير، وقد استقبل الربيع ذات عام في (لاهو تفيل) بسافوا في فرنسا وكان مستشفياً من مرض مقيماً بين

مشلولين يهدد الداء حياتهم في جبال منقطعة عن المدائن ولكن الربيع حرك في نفسه بواعث النشاط والآمال الشابة والمسرات التي تفيض بها الأرض المزهرة الجوانب والسماء الصافية الأديم...

دعا الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى تعليم المرأة المصرية واقتباس نظم التعليم من أوروبا ولكنه كان ينادى بالتمسك بأهداب الدين الإسلامي والتقاليد الشرقية، والمرأة في نظره المنبع الفياض بما في الحياة الإنسانية من حب. وهذا أساس النظام والعدل والرحمة والسعادة على أن في المرأة في نظره نوعاً من السحر والخلابة والجمال، وهو الذي يسمو بخيال أهل الفن إلى ما يبدعونه من آثارهم الفنية ويلهم اشعراء روائع الشعر ويذكر في قلوب المستعدين نار العشق العظيم وإذا كان جمال الحياة شعراً وفناً مرحباً فإن المرأة هي التي تثير كل ما في الحياة من معاني الجمال....

أما عن تحديد عمل المرأة في الحياة وعمل الرجل فليس كله في أصل الخلقة، ولذلك أختلفت الأمر في الجماعات الإنسانية اختلافا كبيراً.

هذه هي بعض خطرات ولمحات من حياة وآراء الشيخ عبد الرازق تغمده الله برحمته وعوض الإنسانية والعالم الإسلامي في فقده خير الجزاء...

طرب

التأليف العربية في الموسيقى

نبغ العرب في الموسيقى منذ القرون الأولى للهجرة، ولعل أول كتاب يمكن نعتبره في هذا الفن هو كتاب الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي ألف كتاباً في الموازين وكتاباً في النغمات، ثم وضع ابن العوراء كتاباً للأغاني في القرن الثالث للهجرة، أما اسحق بن ابراهيم الموصلي فيقال إنه ألف ثلاثة وثلاثين كتاباً من بينها كتاب الألماني التي لحنها، وكتاب أغاني معبد.

وألف يعقوب بن اسحق الكندي ستة مؤلفات هي كتاب في التلحين وكتاب في ترتيب الأبعاد الصوتية وكتاب في العناصر الموسيقية، وكتاب في الميزان الموسيقى، وكتاب في الآلات الموسيقية وكتاب في اتحاد الموسيقى والشعر.

ولثابت بن قرة كتاب في الموسيقى، وليحيي بن علي بن يحيي المسجم رسالة في الموسيقى محفوظة في المتحق البريطاني بلندن.

وفي القرن الرابع للهجرة ألف أبو الفرج الأصفهاني كتاب الأغاني، وقد رتبها على ذكر مائة صوت مختارة من أغاني الأقدمين، كان قد طلبها هرون الرشيد من المغنيين في عصره، فاختاروها له، وجمعها اسحق ابن

ابراهيم الموصلي في كتاب له، فهي مذكورة في هذا الكتاب على هذا المذهب.

ويضم كتاب الأغاني ترجمة للأعلام الذين جرت على يدهم أو لديهم أو منهم أو من شعرهم هذه الأغاني من ملوك ووزراء ومغنين وشعراء.

كما كان أبو الفرج إذا قال مثلاً "صوت" يذكر بعده الشعر الذي غناه، والذي ينسب إليه. والذي قال الشعر، ثم يذكر ترجمة كل واحد حسب السياق الذي يقتضيه الحال.

وقيل إن هذا الكتاب جمع في خمسين عاماً، واتفق المؤرخون والرواة على أنه لم يكتب مثله في بابه.

ولما انتهي أبو الفرج الأصفهاني من تأليفه حمله إلى سيف الدولة ابن حمدان، فأعطاه ألف دينار، واعتذر إليه. وروى عن الصاحب ابن عباد أنه كان يستصحب في أسفاره حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها. فلما وصل إليه هذا الكتاب اكتفى به، فلم يستصحب غيره بعد ذلك.

والكتاب يقع في واحد وعشرين جزءاً، وطبعه برونو عام ١٨٨٨، وأعيد طبعه عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م)، مع فهرس أبجدي مبني على فهرس جويدي، كما طبع في بولاق بمصر عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) في

عشرين جزءاً وطبع في القرن العشرين عدة طبعات أخرى منها طبعة في دار الكتب المصرية صدرت منها عدة أجزاء.

كما ألف أبو النصر محمد طرخان الفارابي كتاباً في الموسيقى، وتوجد منه نسخة موجودة في كل من مكتبة ليدن ومدريد وميلانو.

وألف أبو الحسن البرمكي كتاباً يسمى لاعبات الطنبور.

وفي القرن الخامس للهجرة كتب أبو علي الحسين بن سينا فصلاً في الرسالة الثانية عشرة من كتابه المسمى الشفاء.

ولإخوان الصفا رسالة في الموسيقى استخرجت من كتابهم المسمى "اخوان الصفا" في القرن السادس للهجرة. أما أبو عبد الله الخوارزمي فقد تكلم عن الموسيقى في كتابه المسمى قاموس الاصطلاحات الفنية لناسخي الكتب، وفي كتابه المسمى "مفاتيح العلوم".

وفي القرن السابع للهجرة ألف أبو محمد المنذري كتاب الترغيب في الموسيقى كما ألف صفي الدين بن محمد عبد المؤمن البغدادي رسالة في الموسيقى أطلق عليها "الشرقية" وله كتاب "الأدوار" وتوجد منه نسخة في المتحف البريطاني بلندن.

أما محمد الصلاحي فألف كتاباً عن إباحة استعمال الآلات.

وفي القرن الثامن للهجرة نقل محمد بن أبي بكر الشيرواني نبذي عن رسائل اخوان الصفا، أما ابن خلدون فله رسالة في الموسيقى ضمن كتابه المسمى كتاب العبر.

أما محمد الشلبي فعربي من أسبانيا، وله رسالة في الموسيقى محفوظة في مكتبة الأسكوريال بمدريد. وألف لسان الدين بن الخطيب كتاباً في الموسيقى كذلك.

ولعل أهم الكتب التى ألفت عن الموسيقى في القرن التاسع للهجرة كتاب الأبشيهي "المستطرفي كل فن مستظرف"، ويضم فصلاً عن الصوت الجميل، وللمقريزي كتاب في الغناء كذلك.

وتوجد فضلاً عن ذلك عدة مؤلفات في الموسيقى لمؤلفين مجهولين كتب بعضها باللغة العربية والآخر باللغة الفارسية وهي ذات قيمة فنية وتاريخية كبيرة، وتعطي لنا صورة واضحة عن تطور الفن الموسيقي عبر العصور والأجيال.

وفي العصر الحديث قام بعض المؤلفين بكتابة بعض المؤلفات عن الموسيقى، منها كتاب أحمد الفرجلانى في القرن الرابع عشر للهجرة، والقرن العشرين للميلاد ويسمى كتاب السفينة الأدبية.

أما أحمد أمين الديك فله كتاب آخر ذو عنوان قديم يسير وفق العناوين العربية المسجوعة وهو "نيل الأرب في موسيقى الأفرنج والعرب".

وكتب الشيخ عثمان الجندي كتاب روض المسرات أما الموسيقار أحمد كامل الخلعي فله كتاب يسمى "الموسيقى الشرقية" وهو كتاب طريف يضم باقة من أعلام الموسيقى في الشرق منذ العصور الأولى حتى أوائل القرن العشرين.

وكتب درويش محمد كتاب "صفا الأوقات في علم النغمات" كما كتب أبو علي النواتي كتاب. كشف القناع عن آلات الصباع وقد طبع في الجزائر عام ١٣٢٠هـ.

وقال الفارابي في وصف العود في رسالة عن الموسيقى، "هذه الآلة من الآلات التي تحدث فيها النغم بقسمة الأوتار الموضوعة فيها، ويشد على المكان المستدق منها دساتين تحت الأوتار على عدد أقسامها التي يسمع فيها النغم، فتقوم لها تلك مقام حوامل الأوتار وتجعل موازية لقاعدة الآلة التي تسمى المشط وهي التي فيها أطراف الأوتار متباينة الأماكن وفيها تشد الأوتار ثم تمد منها، وتجمع أطرافها في مكان واحد حتى يصير وضع الأوتار شبيهة شكل أضلاع مثلثات تبتديء من قاعدة واحدة وينتهي ارتفاعها إلى نقطة واحدة ودساتينها المشهورة أربعة دساتين مشدودة على الأماكن التي تنالها الأصابع في أسهل موضع يمكن القبض

عليها من واسطة المكان المستدق من الآلة، فأول هذه دستان السبابة وثانيها دستان الوسطى والثالث دستان البنصر، والرابع الخنصر فيكون أقسام الأوتار المشهورة على عدد الدساتين".[٢]

ومن يتأمل في هذه العبارة يلاحظ أن الفارابى كان إلى جانب ثقافته الفلسفية يتمتع بثقافة فنية رفيعة، ويمتاز بمعلومات دقيقة في جوانب الفن والطرب. هذا فضلاً عن أن العود نفسه آلة عربية نقلت إلى أوروبا ثم أطلق عليها لفظ لوت **Lute** وربما وصلت إلى الغرب عن طريق أسبانيا.

وقد ضمن الفارابي رسالته فصولاً عن الطنبور البغدادي، والطنبور الخراساني، والرباب والمزامير وغيرها من الأدوات الموسيقية عند العرب مما يدل على طول باعه في هذا الفن الأصيل.

ومن أطرف ما ذكره في فصل الرباب "هذه الآلة من الآلات التي يستخرج نغمها بقسة الأوتار التي تستعمل فيها، فربما استعمل فيها وتر واحد، وربما استعمل اثنان متساويا الغلظ وربما استعمل وتران متفاضلاً الغلظ ويجعل أزيدهما غلظاً حاله في هذه الآلة كحال المثلث في العود، وحال الأنقص غلظاً في هذه الآلة كحال المثنى في العود".[٣]

(٢) الموسيقى للفارابي ص١٣٣، طبعة حيدر أباد عام ١٣٥٤ ص١٣٣.
(٣) الموسيقى للفارابي ص١٣٣، طبعة حيدر أياد عام ١٣٥٤ ص١٦٦.

وليس من شك في أن هذه اللفتة الفنية طالما توخاها الموسيقيون في الإيقاعات الفنية. هذا وقد نشر المستشرق. ج. ب. ن. لاند هذه الرسالة في أوروبا.

أما ابن سينا المتوفى عام ٤٢٨هـ فله رسالة أخرى في الموسيقى لا تقل قيمة عن رسالة الفارابي، ورغم أن هذه الرسالة نالها كثير من التحريف والتصحيف بيد أنها تدل في لبابها على ثقافة الفارابي الموسيقية. وقد رأى أن صناعة الموسيقى تشتمل على جزئين أحدهما يسمى التأليف وموضوعه النغمة وينظر في حال اتفاقها وتنافرها، والإيقاع وموضوعه الأزمنة المتخللة بين النغم والنقرات المنتقل بعضها إلى بعض وينظر في حال وزنها وخروجها عن الوزن والغاية منهما جميعاً صنعه اللحن".[٤]

وقد فصل ابن سينا في رسالة الانتقالات المختلفة والثلاثي والرباعي والخماسي والخفيف، والهزج وثقيل الهزج ونحو ذلك.

واستهوت هذه الرسالة كثيراً من الأدباء في الشرق والغرب، وطبعت بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالدكن "صانها الله من الشرور والفتن" عام ١٣٥٣هـ.

---

(٤) رسالة في الموسيقى لابن سينا ص٢ طبعة حيدر أباد عام ١٣٥٣هـ.

أما إخوان الصفا وخلان الوفا فكانوا جماعة من العلماء الإسلاميين الذى عاشوا إخواناً متحابين وإكفاء متصافين على الطهارة والنزاهة وعلموا أن في الإخاء سر الحياة الإنسانية فقاموا بالدعوة له وبنوا هياكل اجتماعاتهم على الصفاء والوفاء. وكان لهم آراء طريفة في الموسيقى وكانوا يعتقدون أن الأعضاء تتناسب على الأصول الموسيقية وأن للأفلاك نغمات وأن هناك طبقات مختلفة للألحان، وردوا في رسائلهم نوادر طريفة في الموسيقى، منها أنه اجتمعت جماعة من الحكماء والفلاسفة في دعوة ملك من الملوك فأمر أن يكتب كل ما يتكلمون به من الحكمة فلما غنى الموسيقار لحناً مطرباً قال أحد الحكماء إن للغناء فضيلة يتعذر على المنطق إظهارها، ولم يقدر على إخراجها بالعبارة، فأخرجتها النفس لحناً موزوناً، فلما سمعتها الطبيعة استلذت بها وفرحت، وسرت بها، فأسمعوا من النفس حديثها ومناجاتها. وقال آخر: احذروا عند استماع الموسيقى أن تثور بكم شهوات النفس البهيمية نحو زينة الطبيعة فتميل بكم عن سنن الهدى وتصدكم عن مناجاة النفس العليا. وقال آخر للموسيقار: حرك النفس نحو قواها الشريفة من الحلم، والجود والشجاعة والعدل، والكرم والرأفة، ودع الطبيعة لا تحرك شهواتها البهيمية.

وهكذا كان إخوان الصفا يعتبرون الموسيقى فناً رفيعاً يستهوي النفوس استهواء ويجتذب القلوب اجتذاباً بيد أنهم كانوا يقرنونه بالفضيلة ويتوخون أن تهدف الموسيقى إلى تحريك النفوس نحو الفضائل ونفيها عن الرذائل.

وقد ذكروا المقارنات بين الحواس المختلفة فقال قائل إن السمع والبصر هما من أفضل الحواس الخمس وأشرفها التى وهبها الباريء عز وجل ولكن البصر أفضل لأنه كالنهار والسمع كالليل بنيما رد عليه آخر: لا بل السمع أفضل من البصر لأنه يذهب في طلب محسوساته ويخدمها حتى يدركها مثل العبيد، والسمع تصل إليه محسوساته حتى تخدمه مثل الملوك!

وليس من شك في أنه من أهم الأشياء التي تخدم السمع هي الموسيقى لأنها تصله بعوالم فنية رفيعة كما تخبر عن أسرار النفوس وضمائر القلوب. كما أن لانفوس إليها أشد ليلاً وأسرع قبولاً لما بينهما من مشاكلة فالنفوس جواهر روحانية بسيطة غير مركبة ونغمات الموسيقى من نفس النوع وذات المعدن! والأشياء إلى أنواعها أميل وعلى أشكالها تقع!!..

وقد عالج إخوان الصفا في رسائلهم الجانب النفسي من الطرب فقالوا إن نغمات الموسيقار في نفوس المستمعين مختلفة الألوان، ولذة النفوس منها وسرورها بها متفننة متباينة، فكل نفس إذا سمعت من الأوصاف ما يشاكل معشوقاتها ومن النغمات ما يلائم محبوباتها طربت وخرجت وسرت والتذت بحسب ما تصورت من رسوم معشوقها واعتقدت في محبوبها!

وضمن إخوان الصفا هذه الآراء فصلهم في تلون تأثيرات الأنغام وهو يدل على اتجاه نفسي في فهم الموسيقى، وإدراك تأثيرها على النفس الإنسانية.

فضل العرب على الموسيقى

عرف العرب الموسيقى منذ القرون الأولى، ولقد أدرك العربي للوهلة الأولى أنه عندما كان يستقيم ميزان لحنه، كانت الإبل تمد أعناقها وترفع رؤوسها وتنظم خطواتها وتسرع في سيرها، ولعل خطوات الجمل الأربع الثقيلة كانت أساساً للميزان، ولعل مقاطع الكلام من مقصورة وممدودة كونت في تعاقبها مفاصل ذلك الميزان.

ولم يلبث أن أصبح العرب سادة كنوز اليونان والفرس وطابت لهم حياة الملذات وأصبحوا على جانب كبير من النعومة والترف ورقة الحاشية، فنزح الموسيقيون والمغنون من بلاد الروم والفرس إلى الحجاز وصاروا موالى العرب الذين كانوا يحسنون معاملتهم ولا يتوانون عن الأخذ منهم. ولم يمض زمن حتى ظهر بين العرب مغنون ساوت شهرتهم مغنى الفرس، واشتهر من بينهم "نشيط" الذي كان من أصل فارسي وطويس وسائب خائر. وظهر بعد ذلك معبد وابن شريح وغيرهما.

وأصبحت بغداد في ذلك العهد مركزاً للفن الموسيقى، ووفد إليها كثير من عمالقة هذا الفن من شتى الأقطار والأمصار.

ونبغ من مشاهير الموسيقيين في الدولة العباسية ابراهيم المهدي، وابراهيم الموصلي، وابنه اسحق، وابن ابنه حماد.

وكانت جميع الموسيقيات سواء المغنيات أو المشتغلات بالآلات أو الملحنات من الجواري. وكان للموسيقى شأن كبير في قيمة الجواري القيان. وكانت القينة التي تمتاز بالموهبة الموسيقية يرتفع ثمنها في سوق الرقيق قدراً كبيراً، وعلى قدر السرور واللذة التي كانت تستطيع هذه الجارية أن تحدثهما لسيدها يكون مقدار احترامه وحسن معاملته لها.

وقد كان لتلك القيان في بعض الأحيان أنمان باهظة، فابن غانم باع قينته زبيدة بمائة ألف درهم وسلامة بيعت بثمانين ألف درهم.

وكانت القيان تقدم كالهدايا وتدخل في الميراث والصداق.

وكانت دنانير مولاة يحيى بن خالد البرمكي، وكانت مولدة من الفرس ومن أحسن الناس وجهاً وأظرفهن وأكملهن وأحسنهن أدباً وأكثرهن رواية للشعر والغناء، وكان الرشيد لشغفه بها يكثر من زيارته لها وجلوسه عندها حتى شكته زبيدة إلى أهله وعمومته فعاتبوه على ذلك. ولها كتاب مجرد في الأغاني ذاع صيته.

أما عريب فقد كانت من كبار الموسيقيات ومن أحسن المغنيات، وكان اسحاق يقول إنه لم ير أجمل ولا أمهر ضاربة بالعود منها، وكانت تعرف واحداً وعشرين ألف لحن وخمسمائة، وقد كانت أولاً محظية

المأمون وموضوع شغفه حتى سميت بمأمونية، ثم انتقلت إلى الخليفة محمد الأمين وأصبحت محظيته. وقد جمع غناؤها من ديواني ابن المعتز.

أما "بذل" المغنية فكانت قينة قصر الهادي، وكانت حلوة طويلة القامة وذات صوت جميل، ويقال إنها كانت تروى ثلاثين ألف صوت وأنها جمعت في مجموعة لها إثنى عشر ألف صوت، ويقال إنها كانت عند ابراهيم المهدي فغنت في طريقة واحدة وإيقاع واحد مائة صوت لا يعرفها أحد.

أما "محبوبة" فكانت مغنية المتوكل، ويقول عنها المؤرخون إنها كانت شاعرة تنظم الشعر وتلحن أشعارها في سهولة وتغنيها على العود.

أما سلامة القس فكانت من مولدات المدينة وأخذت الغناء عن معبد وجميلة ومالك بن أب السمح وغيرها، وسميت سلامة القس لأن رجلاً يعرف بعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي من قراء أهل مكة وكان يلقب بالقس شغف بها واشتهر عنه ذلك فغلب عليها لقبه.

وقال الحسين بن يحيى: كانت حبابة وسلامة القس من قيان أهل المدينة وكانتا حاذقتين ظريفتين ضاربتين، وكانت سلامة تفوق حبابة غناء، وحبابة تفوق سلامة وجهاً، وكانت الأولى تقول الشعر والأخرى لا تحسنه.

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات في سلامة وأختها:

لقد فتنت رياً وسلامة القسا فلم تتركا للقس عقلاً ولا نفساً

فتاتان أما منهما فشبيهة الهلال وأخرى منهما تشبه الشمسا واشتهر كثير من الموسيقيين العرب وعلى رأسهم ابراهيم الموصلي وهو فارس شغف بالغناء فاشتد عليه غضب أهله فهرب إلى الموصل حيث تعلم الغناء، ثم ذهب إلى الري حيث دأب على إنقان الموسيقى العربية والفارسية ثم استوطن بغداد حيث أخذ عن "سياط" علم الغناء والعزف على العود، وما برح أن أصبح في الصف الأول بين رجال الموسيقى.

وقد أجزل الخليفة الهادي عطاءه ومنحه ذات مرة مائة وخمسين ألف دينار دفعة واحدة، ولما أخلف هارون أخاه موسي سار على منواله في البذخ وقرب الموصلي واختصه بنفسه حتى أطلق عليه النديم.

وكانت الناس قبل ابراهيم يعلمون الجواري السود والصفر الغناء، فكان إبراهيم أول من علم القيان البيض الغناء، فارتفعت أثمانهن.

وكان إبراهيم نابغة عصره فلم يتفوق عليه إلا ابنه اسحق، وكان معبد مبدعاً في الثقيل وابن سريج مبدعاً في الرمل، وحكم الوادي مبدعاً في الهزج، أما ابراهيم فتفوق في اللحن الماخوري الذى يشبه خفيف الثقيل الثاني.

واشتهر ابراهيم برقة حاسته السمعية، ودقة شعورها إلى حد انه سمع ذات مرة ثلاثين جارية يضربن جميعاً بالعيدان طريقة واحدة فاستطاع أن يرشد إلى الصبية التي كان في عودها وتر ناقص غير مستوي.

وفي هذا يقول أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني: "زار ابن جامع يوماً ابراهيم فأخرج إليه ثلاثين جارية فضربن جميعاً طريقة واحدة وغنين، فقال ابن جامع: في الأوتار وترغير مستو، فأشار ابراهيم لجارية من الجوارى وقال لها شدى مثناك، فشدته الجارية فاستوى، فتعجب من حضر، أولاً لفطنة ابن جامع لوتر غير مستو في مائة وعشرين وتراً، ثم ازداد عجبهم من فطنة ابراهيم للوتر بعينه".

واجتمع ابراهيم الموصلي وزلزل وبرصوماً بين يدي الرشيد، فضرب زلزل وزمر برصوماً وغنى ابراهيم:

صـــحا قلبـــي وراع إلـــى عقلـــي   واقصر باطلي ونسيت جهلي
رأيـــــت الغانيـــــا وكـــــن خـــــرزاً   إلـى صـرمنني وقطعـن حبلـي

فطرب هارون حتى وثب على رجليه وصاح: يا آدم لو رأيت من يحضرني من ولدك اليوم لسرك، ثم جلس وقال: استغفر الله!

أما أبو محمد اسحق بن ابراهيم الموصلي، فقد كان شاعراً ومغنياً وعازفاً وملحناً وكان له الفضل في توضيح القواعد الموسيقية وتمهيد

العقبات لدرس الموسيقى، وتمتع مثل أبيه بما لا يحصى ولا يستقصي من العطايا والهبات، ولكنه كان أحسن تدبيراً لأمواله.

ودعاه المعتصم مرة ليلقي لحناً على طائفة من المغنين، فلم يستطع أحد منهم أخذ اللحن لكثرة ما أدخل عليه من الزوائد. وكان الواثق خليفة المعتصم يقول عنه: لما أسمع اسحق يخيل إلى أن ملكي يزداد عظمة وأبهة.

وأباح المعتصم لإسحق أن يتزيا بزي القضاء وأن يجلس في حضرته مع جلساء الخليفة، وكان صاحب علم في مقادير الأبعاد الصوتية، وقواعد تقسيم الأوتار إلى حد أنه كان يستطيع العزف على عود فاسد التسوية، ولم يكن صوته على جانب كبير من الجمال، بيد أنه كان على نصيب كبير من المقدرة الفنية والذوق السليم.

أبو الفرج الأصفهاني

(ولد عام ٨٩٧م، ومات عام ٩٦٧م)

هو أبو الفرج علي بن الحسين أبو الفرج الأصبهاني، وينتهي نسبه إلى مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين. ولد في مدينة أصبهان أو أصفهان عام ٢٨٤هـ(٨٩٧ ميلادية) في خلافة المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق وهي السنة التي مات فيها أبو عبادة البحتري الشاعر المعروف.

أصبهان أو أصفهان

وأصبهان مدينة تقع في العراق العجمي وهي على نهر "رندروز" من جهة الشمال على بعد مائتين وعشرة أميال من طهران جنوباً، وكان أهلها عموماً متعلمين، وكان كل واحد منهم تقريباً يحسن الكتابة والقراءة، بل إن أصحاب الدكاكين والصناع كانوا يحسنون نظم الشعر.

وقال ابن بطوطة في وصفهم إنهم حسان لاصورة ألوانهم بيض زاهرة مشوبة بحمرة، والغالب عليهم الشجاعة والنخوة وفيهم كرم وتنافس عظيم في الأطعمة والضيافة، وتؤثر عنهم في ذلك أخبار غريبة. وقال القزويني إنهم أهل حذق في العلوم والصناعة. أما ياقوت فوصفهم بشدة البخل والفسق. وهجا بعض الشعراء أصبهان فقال:

لعـــــن الله أصـــــبهان بــــلادا ورماهـــا بالســـيل والطـــاعون

بعت في الصيف قبة الخيش فيها ورهنـــت الكـــانون فـــي كـــانون

والظاهر أن الحالة الاجتماعية في المدينة كانت تتغير تبعاً للظروف والأحوال.

رحلته وتعليمه

ولم تدم حياة أبي الفرج في أصبهان طويلاً إذ ما لبث أن رحل منها إلى بغداد، وروى عن علماء كثيرين يطول تعدادهم، وسمع من جماعة لا يحصون ومنهم ابن دريد إمام عصره في اللغة والأدب والشعر، والفضل بن الحباب الجمحي الراوية، والأخفش العالم النحوي الكبير، وابن الأنباري، والطبري، ومحمد بن خلف بن المرزبان، وجعفر ابن قدامة أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم.

وقال عنه ابن خلكان: "كان من أعيان أدبائها (بغداد) وأفراد مصنفيها. روى عن عالم كثير من العلماء يطول تعدادهم، وكان عالماً بأيام الناس والأنساب والسير".

وقال التنوخي: "ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصبهاني. وكان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم أرقط من يحفظه مثله، ويحفظ دون ذلك من علوم أخر منها اللغة والنحو والخرافات والمغازي والسير، ومن آلة

المنادمة شيئاً كثيراً، مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك، وله شعر يجمع اتقان العلماء وإحسان طرفاء الشعراء".

وقال ياقوت في معجم الأدباء: "العلامة النسابة الأخباري الحفظة، الجامع بين سعة الرواية والحذق في الدراسة، لا أعلم لأحد أحسن من تصانيفه في فنها وحسن استيعاب ما يتصدى لجمعه، وكان مع ذلك شاعراً مجيداً".

وقال ابن النديم في كتاب الفهرست: "كان شاعراً مصنفاً أديباً، وله رواية، يسيرة، وأكثر تعويله كان في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد".

ويبدو أن أبا الفرج الأصفهاني كان متأثراً إلى حد بعيد بإسحاق الموصلي فهو يقول: "إن موضعه في العلم، ومكانه في الأدب، ومحله من الرواية، وتقدمه في الشعر، ومنزلته في سائر المحاسن... أشهر من أن يدل عليه فيها بوصف. أما الغناء فكان أصغر علومه، وأدنى ما يوسم به، وإن كان الغالب عليه، وعلى ما كان يحسنه: فإنه كان له في سائر أدواته نظراء وأكفاء، ولم يكن له في هذا نظير، فإنه لحق بمن مضى فيه وسبق من بقي، وألحب للناس جميعاً طريقة فأوضحها، وسهل عليهم سبيله وأنارها. فهو إمام أهل صناعته جميعاً، ورأسهم ومعلمهم. يعرف ذلك منه الخاص والعام، ويشهد به الموافق والمفارق وهو الذي صحح

أجناس الغناء وطرائقه، وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده".

ولذلك جرى الأصفهاني في تجنيسه للأغاني على مذهب إسحاق الموصلي ويحيل ما كان منها على مذهب غير إسحاق إلى مذهبه.

كما تأثر أبو الفرج الأصفهاني كذلك بابن المعتز الخليفة لاشاعر، إذ كانت له آراء جريئة في الفن الشعرى والغناء فنقل عنه آراء طريفة، وأخباراً طيبة وروى أحكامه النقدية في الغناء والمغنيين وعلق على بعض أقواله بقوله: "هذا كلام العقلاء وذوي الفضل في مثله، لا كلام الثقلاء وذوي الجهالة".

وتأثر الأصفهاني كذلك بشخصية "جحظة البرمكي"- وهو أحمد بن جعفر بن موسي بن يحيي بن خالد بن برمك- وكان حسن الأدب كثير الرواية للأخبار، متصرفاً في فنون جمة عارفاً من العلوم بصناعة النجوم، حافظاً لأطراف من النحو واللغة، مليح الشعر، مقبول الألفاظ، حاضر النكتة. وأما صناعة فن الغناء فلم يلحقه فيها أحد. وقد جلس إليه الأصبهاني مجلس الطالب من الشيخ، ولم يفارقه إلا بعد أن انتقل جحظة إلى جوار ربه، وكان الأصبهاني في ذلك الوقت في الأربعين من عمره.

وظهر أثر تلك التلمذة في كتاب الأغاني فهو يقول: "سألت أحمد بن جعفر جحظة عن نسبه قلت له: إن الناس يقولون ابن أمية ابن أبي

أمية فقال: هو محمد بن أمية بن أبي أمية قال: وكان محمد..." وهو يقول في موضع آخر: "حدثني جحظة وجعفر ابن قدامه، وخبر جعفر أتم، إلا أني قرأته على "جحظة" فعرفه وذكر لي أنه سمعه".

وقد اتصل أبو الفرج الأصفهاني بالوزير المهلبي وزير معز الدولة البويهي. ويقول الثعالبي في "يتيمة الدهر" إن أبا الفرج كان منقطعاً إلى المهلبي الوزير كثير المدح مختصاً به".

وكان المهلبي يختاره في كل شيء مفرح وكانت صحبته له قبل الوزارة وبعدها، وظل هكذا إلى أن فرق بينهما الموت. وقد مات المهلبي مغضوباً عليه من معز الدولة عام ٣٥٢هـ ولعل هذا هو السبب الذي منع أبا الفرج الأصبهاني عن رثائه.

وكان المهلبي من الأدباء الذين يقولون الشعر ويكتبون النثر، ونعتقد أنه الشخصية التي ألف لها أبو الفرج الأصبهانيكتاب "الأغاني". إلا أن الأصبهاني صرح في كتابه عن الباعث الذي رفعه إلى التأليف فقال: "والذي بعثني إلى تأليفه أن رئيساً من رؤسائنا كلفني جمعه، وعرفني أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى إسحاق مدفوع أن يكون من تأليفه، وهو مع ذلك قليل الفائدة وإنه شاك في نسبته لأن أكثر أصحاب اسحاق ينكرونه، ولأنه ابنه حماداً أعظم الناس إنكاراً لذلك ولعمري قد صدق فيما ذكره وأبى فيما أنكره".

وكان أبو الفرج الأصبهاني شيعياً، إذ كان من الشيعة الزيدية. وقال صاحب كتاب "الذريعة إلى تصانيف الشيعة" أنه قال متغزلاً:

يأنـــــت– يـــــا ذا الخـــــال   فـي الوجنـة– ممـا بـي خـالي
لا تبــــــــــالي بـــــــــــي   ولا تخطرنـــي منـــك ببـــال
لا ولا تفكـــــر فـــــي حـــــا   لـــي وقـــد تعـــرف حـــالي!
أنـــا فـــي النـــاس إمـــامي   وفـــي حبـــك غـــالي!

فهو يتشيع في هذه الأبيات إلى الأمويين، ولعل هذا يرجع إلى أنه كان من سلالة الأمويين وورث التشيع عن أسرة أمه، وكانت من الرافضة أو الزيدية. كما أن الفترة التي قضاها أبو الفرج في الكوفة زادت في شعوره نحو الشيعة والتحمس لهم. وظهر أثر هذا التشيع واضحاً في كتاب "مقاتل الطالبية".

من صفاته

ويروي عن خلقه أنه كان أكولاً نهماً، وكان إذا ثقل الطعام في معدته تناول خمسة دراهم فلفلاً مدقوقاً، ولا تؤذيه ولا تدمع عيناه، وهو مع ذلك لا يستطيع أن ياكل حمصة واحدة، أو يأتدم بمرق قدر فيها حمص، وإذا أكل شيئاً يسيراً من ذلك ظهر أثر ذلك على بشرته وتفشي في جلده، وبعد ساعة أو ساعتين يفصد، وربما فصد لذلك دفعتين.

ويروي الرواة عن أبى الفرج الأصبهاني شيئاً غريباً، وهو شغفه بالغلمان وإلمامه بأديرة النصارى لهذا الغرض. وقد لا تفيدنا هذه الظاهرة في قليل أو كثير في ميدان الترجمة لأبي الفرج، بيد أنها تلقى لنا أضواء على البيئة الاجتماعية التي عاش فيها أبو الفرج. ولا شك أن أثر هذه البيئة ظهر واضحاً جلياً في مروياته الماجنة في بعض الأحيان. ولذلك حفل كتاب "الأغاني" بمثل هذه الأخبار التي سقطت في بعض الطبعات. كما روى "الأصبهاني" أخبار القيان والمغنيات، ووضح دور "عريب" وجواريها، وبذل الكبرى ومن أخذ عنها، وجواري البرامكة وآل يحيي بن معاذ، ودور آل الربيع، ومن لف لفهم ممن تمسك بالغناء القديم. وصور مجالس الشراب وأقداح الراح وكئوس الخمر تصويراً واقعياً صحيحاً. زد على ذلك أن الأصبهاني نفسه كان نديماً. وهل يستطيع أبو الفرج أن يقص في مجالس الشراب إلا أخبار الكاس والطاس وما إليهما؟

ويقول أبو الفرج في أبيات له يصور تلك الحياة العابثة الماجنة التي كان يحياها في بعض الأحيان:-

وبكر شربناها على الورد بكرة فكانت لنا ورداً إلى ضحوة الغد

إذا قام مبيض اللباس يديرها توهمته يسعى بكم مورد

وكان يضيق بشهر الصيام، فإذا جاء رمضان تمنى أن ينجلي عنه، وإذا أدبر رمضان ازداد سروره وعظمت نشوته:

وقد جاء شوال، فشالت نعامة الـ ـصيام، وأبدلنا النعيم من الضر

وضجت حبيسة الدن من طول حبسها ولامت على طول التجنب والهجر

مؤلفاته وشعره

وللأصبهاني مجموعة كبيرة من المؤلفات نذكر منها كتاب "الأغاني"، وكتاب "مجرد الأغاني"، وكتاب "التعديل والانتصاف في أخبار القبائل وأنسابها"، وكتاب "مقاتل الطالبيين"، وكتاب "أخبار القيان"، وكتاب "الإماء الشواعر"، وكتاب "المماليك الشعراء"، وكتاب "أدب السماع"، وكتاب "أخبار الطفيليين"، وكتاب "مجموع الأخبار والآثار"، وكتاب "الخمارين والخمارات"، وكتاب "الفرق والمعيار في الأوغاد والأحرار"، وهي رسالة كتبها في هارون بن المنجم، كتاب "دعوة النجار"، وكتاب "جمهرة النسب"، وكتاب "نسب بني تغلب"، وكتاب "الغلمان المغنيين" وغيرها...

وله فضلاً عن ذلك مؤلفات أخرى كان يرسلها إلى المسئولين على بلاد المغرب من بني أمية، فكانوا يحسنون جائزته، ولم يعد منها إلى الشرق إلا القليل.

وللأصفهاني طائفة من الأشعار، وشعره جيد إلا أنه في الهجاء أجود، وإن كان في غيره متأخر. وكان الناس في ذلك العهد يحذرون لسانه، ويتقون هجاؤه، ويصبرون في مجالسته ومعاشرته ومؤاكلته ومشاربته على كل صعب من أمره، لأنه كان حاد الطبع غليظ القول. زد

على ذلك أنه لم يكن يهتم بمظهره أو يعتني بملبسه، ولم يكن يخلع ملابسه إلا بعد أن تتمزق ويبليها الزمن، ولم يكن يغلسها إلا قليلاً!

إلا أن كتاب "الأغاني" يعد أهم الأعمال الأدبية التي قام بها أبو الفرج.

الأغاني موسوعة أدبية

وقد رتب أبو الفرج كتاب الأغاني، على ذكر مائة صوت مختارة من أغاني الأقدمين، كان قد طلبها هارون الرشيد من المغنيين في عصره، فاختاروها له، وجمعها إسحق بن إبراهيم الموصلي في كتاب له، فهي مذكورة في هذا الكتاب على هذا المذهب. وقيل إن البعض نسب إلى اسحاق الموسلى بعض أغاني ليست في كتابه ولا على مذهبه في الحقيقة، فوقع في ذلك شكوك، فطلب إلى أبي الفرج بعض أصدقائه أن يضع كتاباً في مائة صوت مختارة، فوضع هذا الكتاب، وذكر معها، بطريق المناسبة، أغاني أخر ليست من هذه الأصوات المائة مع ذكر اللحن وكيفية الغناء به.

وفي هذا الكتاب ترجمة الأعلام الذين جرت على يدهم أو لديهم أو من شعرهم هذه الأغاني: من ملوك ووزراء ومغنين وشعراء وغير ذلك– حسب اقتضاء المقام– فكان لهذا جامعاً لأكثر مشاهير الجاهلية والإسلام، كما كان إذا قال مثلاً "صوت" يذكر بعده الشعر الذي غنى فيه

هذا الصوت والذي غناه، والذي ينسب إليه، والذي قال الشعر، ثم يذكر ترجمة كل واحد في محله حسب السياق الذي يقتضيه الحال.

وقيل إن هذا الكتاب جمع في خمسين عاماً. وقد اتفق المؤرخون والرواه على أنه لم يكتب مثله في بابه، ولما انتهى أبو الفرج من تأليفه حمله إلى سيف الدولة بن حمدان، فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه. وروى عن الصاحب بن عباد أنه كان يستصحب في أسفاره حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها، فلما وصل إليه هذا الكتاب أكتفى به، فلم يستصحب غيره بعد ذلك. وقد طبع في بولاق بمصر سنة ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) في عشرين جزءاً تشتمل على ٣٦٨٤ صفحة من قطع الثمن.

وقد عثروا على الجزء الحادي والعشرين في بعض المكتبات الأوروبية، فأعادوا طبعه في واحد وعشرين جزءاً، وقد طبعه "برونو" سنة ١٨٨٨م، فصار الكتاب واحداً وعشرين جزءاً. ووضع له الأستاذ "جويدي" المستشرق الإيطالي فهرساً أبجدياً مطولاً عام ١٨٩٥، وأعيد طبع واحد وعشرين جزءاً من الأغاني عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) مع فهرس أبجدى مبنى على فهرس "جويدي". ولخص كتاب الأغاني جمال الدين الحموي المتوفى سنة ٦٩٧هـ في كتاب منه نسخة خطية في المتحف البريطاني، وجرده الأب "أنطون صالحاني" من الأسانيد والأغاني، وأبقى الروايات على حدة في كتاب أسماه "روايات الأغاني"،

وهو جزءان: الأول في الروايات الأدبية، والثاني في الروايات التاريخية، وطبع في بيروت في المدة الواقعة بين عام ١٨٨٨، ١٩٠٨م.

وقد صدرت في بيروت منذ سنوات "قطوف الأغاني" وهي مختارات من الأغاني. وقال الوزير أبو القاسم الحسن بن الحسن المغربى في مقدمة ما انتخبه من كتاب الأغاني "وقدمه إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار، وبلغ ذلك الصاحب ابن عباد فقال: "لقد قصر سيف الدولة، وأنه يستأهل أضعافها" ووصف الكتاب فأطنب، ثم قال: "ولقد اشتملت خزانتي على مائتين وستة آلاف مجلد ما فيها ما هو مسيري غيره، ولا راقني منه سواه". وقال أبو القاسم عبد العزيز ابن يوسف، كاتب عضد الدولة: "لم يكن كتاب الأغاني يفارق عضد الدولة في سفره ولا حضره، وإنه كان جليسه الذي يأنس إليه، وخدينه الذي يرتاح نحوه". إلا أن بعض النقاد يرون في كتاب الأغاني بعض الخلل، ولعل هذا يرجع إلى طوله وفي ذلك يقول ياقوت الحموي في معجمه: "وقد تأملت هذا الكتاب، وعنيت به، وطالعت مراراً، وكتبت منه نسخة بخطى في عشرة مجلدات، ونقلت منه إلى كتابي المرسون "بأخبار الشعراء" فأكثرت وجمعت تراجمه فوجدت يعد بشيء ولا بقى به في غير موضع منه، كقوله في أخبار أبي العتاهية: "وقد طالت أخباره هنا وسنذكر خبره مع عتب في موضع آخر... ولم يفعل، وقال في موضوع آخر: أخبار أبي نواس مع جنان إذ كانت سائر أخباره تقدمت... ولم ينقدم شيء إلى أشباه ذلك والأصوات المائة تسعة وتسعون، وما أظن إلا أن الكتاب قد سقط منه شيء أو يكون النسيان غلب عليه. والله أعلم".

وقد وجدت في الأدب العربي كتب مختلفة باسم "الأغاني" غير كتاب الأصبهاني. منها كتاب "تجريد الأغاني لابن واصل الحموي"، وكتاب أغاني إسحاق التي غنى بها، وكتاب الأغانى لحسن بن موسي النصيبي وهو مرتب على حروف المعجم وقد ألفه صاحبه للخليفة المتوكل وضمنه أشياء من الأغاني لم يذكرها إسحق الموصلي ولا عمرو بن بانة وذكر من أسماء المغنين والمغنبات في الجاهلية والإسلام كل طريف وغريب.

وقد جرى الأصبهاني في تقسيم كتابه على نحو من سبقه من المؤلفين فأساس ترتيبه ليس الزمن وليست الأسماء مرتبة ترتيباً أبجدياً، ولا الموضوعات مفهرسة فهرسة موضوعية، وإنما أساس ترتيبه الأصوات. وفي هذا يقول: "ولعل من يتصفح ذلك ينكر تركنا تصنيفه أبواباً على طرائق الغناء، أو على طبقات المغنين في أزمانهم ومراتبهم أو على ما غنى به من شعر شاعر. والمانع من ذلك والباعث على ما نحوناه علل منها أنا لما جعلنا ابتداءة الأصوات المختارة، كان شعراؤها من المهاجرين والأنصار وأولهم أبو قطيفة، وليس من الشعراء المعدودين ولا من الفحول، ثم عمر بن أبى ربيعة، ثم نصيب. فلما جرى أول الكتاب هذا المجرى ولم يكن ترتيب الشعراء فيه: ألحق آخره بأوله وجعل على نسب ما حضر ذكره، وكذلك سائر المائة صوت المختارة، فإنها جارية على غير ترتيب الشعراء والمغنين. وليس المغزى من الكتاب ترتيب الطبقات، وإنما المغزى فيه ما ضمنه من ذكر الأغاني باخبارها وليس هذا مما يضر بها".

وقد أدت هذه الطريقة إلى تجزئة حياة كثير من الشعراء وأهل الفن، بل أنه ترجم لبعضهم في أكثر من موضع مما دعا إلى التكرار والاستطراد الذي لا ضرورة له. زد على ذلك أنه كان يروي القصة كما وصلت إليه، والخبر كما وقع عليه، ليس يعنيه صدق أو كذب بقدر ما تعنيه هذه الرواية.

وفاة الأصفهاني

وتوفى أبو الفرج الأصفهاني في الرابع عشر من ذي الحجة سنة ٣٥٦هـ (٢١ نوفمبر عام ٩٦٧) في بغداد. ومات في هذه السنة عالمان كبيران وثلاثة ملوك كبار؛ فالعالمان: أبو الفرج وأبو علي القالي، والملوك: سيف الدولة الحمداني، ومعز الدولة بن بويه، وكافور الإخشيدي.

وقد اختلف في تاريخ الوفاة إلا أن هذه السنة هي الراجحة في كتب للمؤرخين.

عبده الحامولي

ولد عبده الحمولي عام ١٨٤٥، في إحدى القرى المحيطة بمدينة طنطا بالوجه البحري، من أب يشتغل بتجارة البن، وينتقل ببضاعته بين شتى المدن، وكان أبوه حاد الطبع، عنيف الطباع، يغلظ معاملة ابنه الأكبر، شقيق عبده الحمولي، وكان هذا الشقيق يضيق بمعاملة أبيه، وحدث ذات يوم أن اشتد الخلا بين الرجل وابنه الأكبر، فترك الابن منزل والده وفي صحبته أخوه الأصغر عبده الحمولي، وهام في الفلوات حتى يتخلص من سلطان أبيه عليه، وكان عبده الحمولي لا يزال في ذلك الوقت طفلاً صغيراً، فأمسك بيده الصغيرة في يده، ومضى يذرع به الفيافي والقفار حتى إذا هد الطفل الصغير السير حمله أخوه الأكبر على كتفه.

وسار الأخ مع شقيقه الأصغر على غير هدى حتى بلغ منهما التهب كل مبلغ، وأحسا بشدة الجوع، وحرقة العطش، وكان الليل قد أرحى ستائره السود على الدنيا فعرجا على منزل رجل رحب بهما، وهش لمقدمهما، وقدم إليهما الطعام والشراب، وأبدى استعداده أن يبيتا عنده، وعندئذ أحس الأخ الأكبر ببعض الراحة ولكن الطفل الصغير عبده الحمولي أدركته سحابة من الكآبة والحزن، وانفجر باكياً فطيب صاحب المنزل خاطره، وقدم إليه بعض الحلوى، ولم يلبث أن هدأ الطفل، واستقر باله، وظل الضيفان عند هذا الرجل أياماً متواصلة.

ومن غريب الاتفاق أن الرجل كان يشتغل بصناعة الغناء، ويضرب الآلة المعروفة "بالقانون" في طنطا، وسمع صوت الطفل فأعجبه، وآل على نفسه أن يلقنه أصول الغناء، وقواعد الفن، فأحضره إلى مصر، واشتغل معه في قهوة معروفة في ذلك العهد بقهوة "عثمان أغا" وشب الطفل وترعرع حتى صار فتى غض الأهاب، ريعان الشباب، وهنا فكر "المعلم شعبان"– وهو اسم الرجل الذي يحترف صناعة الغناء– أن يزوجه من ابنته حتى لا ينفصل عنه، وحتى لا يحرم جمهوره من صوته العذب الذي تنبأ له بمستقبل عظيم– فكان له ما أراد وتزوج عبده الحمولي من ابنة المعلم شعبان بيد أن شعبان لم يلبث أن ساء معاملته عقب زواجه وطفق يغلظ القول له، ويعنفه لأتفه الأمور، ويوجه إليه اللوم والتقريع لكل صغيرة وكبيرة، فضاقت نفس عبده الحمولي، وعول على التخلص من أسر هذا الرجل.

وكان في مصر في ذلك الوقت مطرب طائر الصيت، في فن الغناء اسمه "المقدم" وحدث أن استمع المقدم إلى عبده الحمولي، فأعجب بصوته، وسعى إلى إلحاقه "بتخته" فلم يجد عبده الحمولي عضاضة في العمل معه، ولم يلبث أن انفصل عن المعلم شعبان في العمل، وانفصل عن ابنته بالطلاق، وكرس حياته لخدمة الفن في صحبة "المقدم".

وظل عبده الحمولى يغني مع المقدم على الطريقة القديمة في فن الغناء التي أحدثها رجل وافد من أهل حلب اسمه "شاكر افندي"– على ما يقول الرواة– وكانت هذه الطريقة بمثابة حروف الهجاء بالقياس إلى

الفن، لا يحيد عنها المطربون، ولا يرجون منها خلاصاً، وصارت ذخيرة نفيسة عند أهل الفن بل إن بعض الواقفين عليها امتنعوا عن تلقينها لغيرهم من المطربين حتى ينفردوا بها دون غيرهم، بيد أن عبده الحمولي غنى بها مدة، ثم انصرف عنها بوحي سجيته المرهفة، وسحه الرقيق، وارتفع بفنه الرفيع عن التردي الدائم في مهاويها، ومزجها بفنه الأصيل، وخلصها من النغمات الدخيلة، وأزال عنها الجفوة الحلبية، مع المحافظة على الأصل وعدم الخروج عن دائرته، وما زال عبده الحمولي يرتقي بطريقته هذه إلى الذورة حتى ألحقه الخديوي إسماعيل بمعيته، وسافر معه إلى الاستانة عدة مرات، وجلب اسماعيل في عودته إلى مصر جماعة من أكابر المغنيين فيها فكان عبده الحمولي يحضر معهم دائماً في اشتغالهم بالغناء، فاستمالته ألحانهم، وطرب من أنغامهم، وطفق يغني ما يلائم مزاجه العربي منها، وأخذ من الموسيقى التركية ما أعجبه وهز جوانحه، واقتبس منها بعض النغمات التركية التي لم يألفها العرب مثل "النهاوند والحجاز كار، والعجم" وغيرها وطبعها بالطابع العربي، والمزاج الشرقي الصميم. ثم التفت إلى مصطلحات الغناء المختلفة في هذه الفترة من التاريخ، فعمل على تطعيمها بروح جديدة، وكان الغناء وقتذاك محصوراً في "المنشدين" أو ما يطلق عليهم "الفقهاء" أو العوالم "القيان" أو غوازي الأفراح، أو المداحين "وهم الضاربون بالدفوف" فأخذ من ألحان هؤلاء ما أعجبه، ونفذ ما يتمشى مع ذوقه السليم، وارتفع بمستوى الغناء إلى درجة لم يبلغها أحد من قبل.

وسلك عبده الحمولي في تلحينه وغنائه سبيل التلوين والتنويع وراح يتنقل في تلحينه من مقام إلى مقام، ومن نغمة إلى نغمة، فخرج بذلك من أسار الجمود والتقليد، وكان أكثر المغنين في هذا الوقت ببغاوات يرددون ما توارثوه من ألحان دون تفكير في خلق شيء جديد، أو الإتيان ببدعة طريفة في التلحين. وبدلاً من أن يستخدم المغنى مواهبه، وبراعته في تشخيص العبارات، وتمثيل نفسية الشاعر أخذ يقوم بدور الببغاء مع أن الموسيقى لغة التعبير الفني الرفيع عن طريق الأذن، فإذا كان المعنى فصيحاً جعلته أفصح، وإذا كان بليغاً جعلته أبلغ، وإذا كان رقيقاً جعلته أرق وأعذب، وإذا كان حماسياً ضاعفت حماسته، وقد ألقى عبده الحمولي على عاتقه هذه المهمة، ولذلك وجدناه يضفي موسيقاه على الكلام فتزيده جمالاً وروعة، وكان العازفون على "تخت" عبده الحمولي يدهشون لقوة حنجرته وتنقله بين تعاريج النغمات، والتواء المقامات وهو يتسرب من بعضها إلى البعض الآخر في مهارة وبراعة، تعجز على اللحاق بها الآلات الموسيقية في أيدي العازفين البارعين.

ويروي داود حسني أنه سمع عبده الحمولي ليلة عرس مهرجان محمد بك فريد يغني قصيدة أبي فراس، وما كاد يصل إلى عجز البيت القائل "إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر" ويفخم هجاء (ظم) حتى خيل للناس أجمعين أنه أصيب بالظمأ في الصحراء، وأغرب من ذلك فإنه عندما ذكر صدر البيت القائل "وقالت لقد أذرى بك الدهر بعدنا" ووصل إلى عجزه القائل "فقلت معاذ الل بل أنت لا الدهر" وحالما جهر بصوته العظيم قائلاً معاذ الله وقف شعر الجكوع المحتشدة واقشعرت أبدانهم

خوفاً وتخشعاً وإجلالاً لذكر الله كأنهم قد عقروا حتى خروا إلى الأرض ساجدين.

ويستغربون تشخيصه أمامهم صورة العليل ومر شكواه من داء الحب وطلبه من الحبيب أن يشفيه منه في حجاز كار.

أشـــكي لمـــين غيـــرك حبـــك   أنـــا العليـــل وأنـــت الطبيـــب

اســــمح وداوينـــــي بقربــــك   واصـــنع جميـــل إيـــاك أطيـــب

كما كان الجمهور يستغرب موقفه وهو يغني "أنا حبيت وزاد قلبي هيام" فإنه يخيل إليهم أنهم يقرؤون الحب على وجهه وانه ذهب بفؤاده كل مذهب، ويرى الشوق عظمه، ودور "سيكاه" من تلحينه الذي كان يغنيه في حلوان بالكازينو.

وقد برع عبده الحمولي براعة فائقة في المقامات التي كان يجرى فيها غناؤه للأدوار ومنها الحجاز كار والعجم والنهاوند، والراست، والبياتي، والعراق، والسيكاه، والعشاق، والجهار كاه، كما كان ينقل ترجمة الأغاني التركية إلى العربية وينظمها للشعراء مثال "بشرف" "بلبل الأفراح غنى آمان في الرياض السندسي" ببعض التصرف تمشياً مع الغزل العربي، وكان شديد الطرب لا يقل تأديته للغناء عن طرب السامع له، وكان شديد الحفظ لما يسمعه مجتهداً دائماً في استخراج محاسن المسموع وطرح معايبه ذا قدرة على أن يبدل القبيح فيه بالحسن، ويقول المؤرخ جورجي زيدان إن ذهنه كان شديد التعليق بالنغم فلا يكاد ينساه،

وربما نام وهو على "التخت" في أثناء الغناء، ثم يستيقظ فيرجع إلى الغناء كما كان فيه من غير مراجعة آلة أو استرشاد بأحد ممن معه كأنما كانت النغمة رسخت في ذهنه فلم تشوش عليها الأصوات التى مرت عليه وهو في نومه، ولم تؤثر عليه الغيبوبة في شيء.

وكان أحياناً يند عن المألوف ويتحول في الدور من نغمته الأولى إلى نغمة ثانية، ثم يعود إلى الأولى ويقفل بها الدور بعد أن يفوت بصوته مارش النسر وينزل متسلسلاً إلى القرار كما حدث ليلة زواج الأستاذ إبراهيم سهلون عارف الكمان فغنى دور "أصل الغرام نظرة" على نغمة "الرصد" ولما أطلق لصوته العنان في سماء الطرب أبدل جواب النغمة، يالسيكاه، وتسلطن بها على الرصد، ونزل متسلسلاً، وأقفل الدور رصداً مما أدهش الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب الملحن الكبير، وكاد يشق ثيابه من شدة الذهول قائلاً: "الله أكبر سبحان الوهاب يا سي عبده"!!..

وقد كان عبده الحمولي ينشد بعض التواشيح إلى جانب الأدوار التي كان يلحنها ويؤديها، واجتمع بعبده الحمولى بنفر من كرام إخوانه في رمضان، فأفطروا وتسامروا هنيهة، ثم أشار بعضهم بالذهاب إلى حي سيدنا الحسين للجلوس هناك في أحد المقاهي البلدية التي يزدحم فيها الناس التماساً للإيناس في هذا الشهر المبارك، غير أنه بدأ لفريق آخر من الرفقاء أن يقترح على عبده الحمولي عملاً صالحاً يرضي به الله والرسول ويسدي به يداً إلى ألوف العامة الذين لا يملكون من المال

والوقت ما ييسر لهم سماع عبده في السوامر، وكان طلب ذلك المقترح أن يصعد عبده الحمولي مئذنة سيدنا الحسين وينشد بعض التسابيح على إثر أذان العشاء، وهذه التسابيح قد جرت العادة أن تنشد من أعلى المعابر في أواخر رمضان ويسمونها في الأفطار العربية التواشيح أو التواحيش ومعناها توديع رمضان، وبث ما لفراقه من الوحشة في النفوس، فلم يتردد عبده الحمولي في الموافقة، ومضى الأصحاب إلى سيدنا الحسين، وأخبر بعضهم من بالجماع أن عبده سينشد تسابيح بعد أذان العشاء ففرحوا، وما لبثت الإشاعة أن جالت جولة البرق بين الجماهير، وفي الحى كله، فلم يأزف وقت الأذان حتى كانت المقاهي، وشرفات المنازل المجاورة، والساحة الممتدة أمام المسجد تحتوى من الخلق ما لا يدرك البصر آخره.

وهكذا نبع عبده الحمولي في إلقاء "التواحيش" واستلب قلوب الناس استلاباً، ويحكي بعض الرواة أنه جلس إلى جانب بائعة بائسة في الطريق المؤدى إلى شارع شبرا بالقاهرة ونادى بسلعتها في صوته الرخيم حتى امتلأ الطريق بعربات الأعيان، وتدفق المال سيلاً على البائعة البائسة وعادت إلى منزلها وهي من أصحاب الثراء بفضل حلاوة صوت عبده الحمولي في النداء على سلعتها! والترنم بنغم حلو جميل!

أما تخت عبده الحمولي فيقول عنه المطرب محمد السبع ومساعده في التخت "أنه شبه مدرسة أو جامعة فنية متنقلة يتعلم فيها

المحترف جمال الفن، ويتضلع من قواعده الأساسية ويقف على أصوله وفروعه".

ووصف شاعر الأقطار العربية خليل مطران إحدى حفلاته فقال:

"استقر بي المقام بجوار التخت" وحولي بحر زاخر من الناس: صياخ، ضجيج، تراشق بالنكات تعقبها موجات عالية من القهقهة، آلات تتوازن وتستعد، العازفون والمساعدون الجالسون على المنصة مهذبون، يعرضون إيحاءات مهذبة إلى معارفهم، وفي الوسط مكان ادخال لرئيسهم، فلما أزفت الساعة العاشرة، علا هرج، وبدا عبده من الصفوف يحيى بكلتا يديه، إلى أعلى رأسه، فما صعد المنصة، ووفي رد التحيات بنفس الإشارة حتى استوى في الصدر، تفرست في الرجل الذي تقاطر ذلك الخلق لسماع غنائه فإذا هو ربعة مليء غير بادن سمح الوجه، أسمره، أسيل الوجنتين، براق العينين، كثيف الحاجبين، وعلى الجملة بهي الطليعة.

شرعت الآلات في التمهيد، رست الصنهج، أنشد البشرف، ثم التهيؤ للطرب، فأخذ عبده ينشد موالاً بذلك الصوت العذب الرنان الصافي، بدأه متمهلاً كأنه بدء الخطيب، فما أنجز شطراً من البيت الأول حتى صعدت آهة واحدة من صدور جميع الناس، آهة ألفها عبده، ولكنها أشعرته بأنه ملك المسامع، فاندفع متدرجاً يترنم، والاستحسان يتحقق لدى كل فرار، جهر وجأر، وتهليل وأدعية، ثم انتقل إلى دور

"بستان جمالك من حسنه"، دور كان معروفاً ومستعذباً، ومستطاباً، فتفنن في أدائه ما شاء، ولعب بالقلوب ما شاء، حتى كان ختام الوصلة الأولى، فهبط من على المنصة، واتجه الناس بعضهم يحدث بعضهم، وبعد الاستراحة بنصف ساعة استأنف عبده الغناء، وكانت وصلة ثانية، أنشط بحملتها، وأبرع من الأولى، جرى عبده فيها على مألوفة بطرائف كأنها من وحي الساعة تتخلل الأناشيد والأدوار المعروفة التي يتغنى بهما، أما الوصلة الثالثة، فكان أبرز ما فيها أن عبده أتحف الناس بدور يسمعونه للمرة الأولى "متع حياتك بالأحباب، أنسك ظهر".

ومن الأغاني التي غناها عبده الحمولي قصيدة أبى فراس الحمداني "أراك عصى الدمع شيمتك الصبر" وقصيدة "أسرت فؤاد المستهام عزيزة" وقصيدة "تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل" وأدوار "فؤادي أسألك قول لي" من مذهب العراق، و"مليك الحسن في دولة جماله" من مذهب حجاز كار "وكنت فين والحب فين" من مذهب حجاز كار، و"يامنية الأرواح" من مذهب نهاوند، و"جاني الجميل والناس على إيده" من مذهب نهاوند أيضاً، و"أنا السبب في اللى جرى" من مذهب بياتى، و"فؤادي جد به حالات" من مذهب رصد، و"الحب صبحني عدم" من مذهب جهار كاه، و"متع حياتك بالأحباب" من مذهب سيكاه، و"شربت الراح في روض الأنس صافي" من مذهب كردان، ومن الأدوار التي طبق عليها لحناً تركياً، فجمع بين الثقافة العربية والأجنبية دور "عشنا وشفنا سنين" وجاء فيه:

عشـــــنا وشـــــفنا ســــــنين ومـن عـاش يشـوف العجـب
شــــربنا الضــــنى والأنــــين جعلنــــا لروحنــــا طـــــرب
غيرنــــا تملــــك وصــــال وحنــــا نصـــيبنا خيــــال

كذا العدل يا منصفين!؟

وممن نظم لعبده الحمولي الأدوار والموشحات الشيخ علي الليثي شاعر الخديوي إسماعيل، ومحمود سامي البارودي رب السيف والقلم، واسماعيل صبري وكيل الحقانية وأحد رجال القانون الذين تقلدوا منصب "النائب العام"، ومصطفى نجيب من كبار موظفي وزارة الداخلية ووالد النجم السينمائي الراحل "سليمان بك نجيب" والشيخ محمد أبو الفضل الأديب الشاعر، والسيد علي أبو النصر، ومن إليهم من عليه القوم، وقد قام بتلحين أدواره الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب المغني الشهير ولكنه لم يلبث أن قام بتلحين أدواره بنفسه فطار صيتها في جميع الآفاق.

وقد أصيب عبده الحمولي ببعض الكوارث التي كان لها أثر كبير في توجيه فنه، واشتغل فترة من حياته في التجارة فافتتح محلاً لتجارة الأقمشة واشترك فيه مع بعض التجار بمبلغ عشرين ألفاً من الجنيهات، فما مضى على تجارته عشرون شهراً إلا وانتهت به سلامة نيته، وحسن ثقته، بأن خر منها صفر اليدين، مديناً للشريك، دائناً للناس يمنعه الخجل ويحجبه الحياء عن طلب الوفاء. فلما أفلست تجارته عاد مرة

أخرى لاستئناف نشاطه الفني، وتعويض ما أصابه من خسران، ولم يمتنع بعد ذلك عن الغناء بين الناس بل إنه كان يمتنع عن طلب الأجر خدمة للفن ذاته، أو عطفاً على أصحاب الفرح، الذين قد لا يستطيعون سداد نفقاته!.

ومن الكوارث التي ألمت به في حياته، موت ابنه محمود الذي فقده فطارت نفسه شعاعاً من أجله، وأخذ منه الحزن كل مأخذ، واختلف الرواة في تاريخ وفاته، فمنهم من قال إنه مات ليلة زفافه، ومن قائل إنه مات بعد مرور ستة وعشرين يوماً على زواجه، ولكن مهما يكن من شيء فإن وفاته كانت حدثاً جللاً بالقياس إلى عبده الحمولي وفنه حتى إنه ارتجل حين علم بفقده دوراً حرك به نياط القلوب.

ليه يا عين ليه ليه يا عين ‏ ‏ ‏ ‏ يا حليوه يا نور العين

كبدي يا ولدي يا جميل يا جميل

لما رأيت البدن داب مني ‏ ‏ ‏ ‏ ودمع عيني بعد أن نشف عني

كبدي يا ولدي آه يا جميل يا جميل!

ومما غناه في مصابه كذلك:

زاهي جمالك فقني ‏ ‏ ‏ ‏ لما بدا نور جبينك

ونبل ألحاظك تجرح ‏ ‏ ‏ ‏ من سهم قوس حاجبينك

كبدي يا ولدي!

وكان عبده الحمولي رغم ما وصل إليه من شهرة الاسم، وعلو الذكر، يكره أن يكون ابنه محمود مطرباً، وحدث أن نما إلى علمه أن ابنه استجاب لدعوة لفيف من أصحابه للغناء في إحدى الحفلات الخاصة فمضى إليه يوجه اللوم والتقريع، فقال جاك رومانو لعبده الحمولي معلقاً في ذلك "لا ضرر يا سي عبده فإن إخوانى يشتركون في التخت"– وكان جاك رومانو من وجوه القوم في ذلك الوقت– وصالح باشا المستشار يعزف على القانون علناً، فأجابه عبده الحمولي قائلاً: "لا يا سي جاك أفضل أن يموت ابنى ولا يكون مغنياً. إننا في بلادنا لا نقدر الفن، فلو أني كنت في بلد آخر لأقام لي الناس تمثالاً، وأنت أعرف الناس بما لحقني من الإهانة بسبب صناعتي!!".

أما أخلاق عبده الحمولي الخاصة، فيحدثنا الرواة عنها الشيء الكثير، ولعل أهم ميزة تتمثل في طباعه أنه كان جواداً كريماً حتى أنه أهدى خاتماً ثميناً من الزمرد منشوري الشكل لا يقل ثمنه عن ألف جنيه لأحد أصدقائه القدامى لأنه لم يكن يملك مالاً عندما سأله وأصبح بذلك قائلاً، دوام الحال من المحال فالدنيا غور، والدهر عثور، وذكر أصحابه بالقول المأثور "أكرموا عزيز قوم ذل".

كما أعطى عبده الحمولي إحدى السائلات، وكانت قد لحقت به وهو يشترى أحد الأدوية جنيهين مرة واحدة، فظنت السائلة أنه أخطأ في ذلك، ومنحها جنيهين بدلاً من قطعتين من النحاس الأصفر، وصرحت بذلك لصاحب الصيدلية فتنبه عبده الحمولي إلى أمانتها وطلب من كل

من الحاضرين في الصيدلة، وكانوا الشيخ محمد عبده، وأحمد فتحي زغلول باشا، والدكتور عباس حلمي بك، وقاسم أمين بك- جنيهاً، فلما جمع أربعة جنيهات قدمها للسائلة جزاء أمانتها وهو يتمثل بقول الحديث الشريف "لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً".

وكان عبده الحمولي يدفع كل شهر كثيراً من المرتبات لأسر المحتاجين ممن اشتغلوا معه، من أهل الفن وغيرهم، وكان إذا عجز أحد من رجال "التخت" عن ممارسة صناعته أخرج له نصيبه الذي كان يأخذه في العمل، وهو مقيم، ومنهم من أقام عاجزاً عشر سنوات.

وصفوة القول إنه أنفق أكثر مما اكتسبه على وجوه الخير والبر ولو كان ادخر أمواله التي كسبها كما يدخر أغنياء اليوم لكان قد ترك المائة أو المائتين ألف جنيهاً بعد موته، ولكنه فضل أن يموت فقيراً، ويعمل صالحاً، على أن يموت ذا ذكرى سيئة ويترك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة!.

وأصيب عبده الحمولي في حياته بكثير من الأمراض، وأعصابه خراج في الكبد، فعمل له الأطباء عملية "البزل" وما كاد يشفي من هذه العملية حتى ظهر في الكبد خراج آخر، فعملت له في الاسكندرية عملية ثانية، وأصيب كذلك "بالبول السكري" ثم أصيب بذات الرئة، وأدركه مرض السل الذي هد جسده هداً.

وفي عام ١٨٩٦ سافر عبده الحمولي إلى الاستانة حيث قوبل بالترحيب العظيم، وأغدقت عليه الهدايا من كل جانب، ونال كثيراً من التقدير والتشريف، ولما ألح عليه مرض السل، نصحه الأطباء بكسنى حلوان، فعكف فيها مدة، ثم أشار عليه الأطباء بسكنى الصعيد، فأقام في سوهاج شهرين ونصفاً، عادت له في أثنائها بعض قوته، وقوى أمله في الشفاء، بيد أن الموت كان أقرب إليه من حبل الوريد، ولم يدركنه دائه إلا في اليوم الذي مات في غده.

وعندما وصل إلى القاهرة عقب عودته من الصعيد نما إلى علمه خبر وفاة أحد أصدقائه المخلصين، في الصعيد، فقفل راجعاً إلى المنيا ليقوم بواجب العزاء، رغم نصح أصدقائه له بالبقاء في القاهرة، فلما عاد من الصعيد، ثقل عليه المرض، واشتدت عليه العلة حتى فاضت روحه إلى بارئها في اليوم الثاني عشر من شهر مايو عام ١٩٠١م.

وعند وفاته نظم أمير الشعراء أحمد شوقي مرثية وجاء فيها:

ساجع الشرق طار عن أوكاره	وتـــولى مـــن علـــى آثـــاره
غالــه نافــذ الجنــاحين مــاض	لا تفــر النســور مــن أظفــاره
ســلب الفــن ألحــن الطيــر فيــه	والمتين المسكين من أوتاره
كـــان مزمـــاره فأصـــبح داو	د كئيبــاً يبكــي علــى مزمــاره
"عبـــده" يـــدار لحنـــاً فلحنـــاً	كحـديث النـديم أو كعقــاره

وأنـــين لـــو أنـــه مـــن مشـــوق — عـرف السـامعون موضـع نـاره
زفـــرات كأنهـــا بـــث قـــيس — في معـاني الهـوى وفـي أخبـاره
لا يجاريـــه فـــي نفثـــه العـــو — د ولا يشـتكي إذا لـم يجـاره
يسـمع الليـل منـه فـي الفجـر يـا — ليل فيصغي مستمهلا في فراره
فجـع النـاس يـوم مـات الحمـولي — بـدواء الهمـوم فـي عطـاره!

وعلق أحد أقطاب الموسيقى في الجمهورية العربية المتحدة على فنه قائلاً: "إذا استطاع إنسان أن يحلق في جو من الإبداع ولابتكار في مثل البيئة التى عاش بها الناس في خاتمة عصر المماليك، كان هو المعجزة، حقاً، وكان هو عبده الحمولي!".

وهكذا عاش عبده الحمولي فريد عصره، ونابغة دهره حتى توفاه الله تعالى.

عبد الحي حلمي

نشأ الفتى وترعرع في مدينتة بنى سويف من مدن الصعيد في القطر المصرى، وتعلم تعليماً أولياً، ثم رحل إلى الاسكندرية حيث التحق بالعمل عند "إسماعيل باشا حافظ" وكان من الوجوه والأعيان الذين كان لهم رفعة شأن وعلو مقام في هذه الفترة. وكان بيت اسماعيل باشا حافظ أشبه ببيت هارون الرشيد في العصر العباسي، حيث كان قبلة رجال الفن والأدب وكانت لياليه الساهرة الباهرة حديث المجتمع وقتذاك، ففي رحابه ترددت أجمل الأصوات، وتصاعدت أحلى النغمات، وعزف الموسيقيون روائع فنهم، وبدائع نغمهم، ولا غرو بعد ذلك أن ورثت ابنته الفنانة "بهيجة حافظ" هذا الولع بالموسيقى، وهذا التعلق بأهداب الفن، والعمل الدائب على تشجيعه والأخذ بناصره.

المهم أن عبد الحي حلمي نشأ في هذه البيئة الفنية الخصبة، فتمكن من حفظ كثير من الألحان القديمة التي كان يغنيها المطربون القدامى، أمثال عبده الحمولي، ومحمد عثمان، والشيخ عبد الرحيم المسلوب، فأخذ عبد الحي حلمي يقتفى آثار هؤلاء المطربين ويسير على منوالهم لولا أنه كان "يشط" في بعض الأحيان عن ألحانهم ويغني بوحي مزاجه الخاص، وبطريقته الخاصة دون أن يحفل بالقواعد الموسيقية، والنبرات الصوتية التي كان يحرص عليها هؤلاء المطربون.

وقد وهبه الله صوتاً حلواً أخاذاً، وحنجرة صافية رائقة، ولذلك كان عبد الحي حلمي من أروع المطربين الذين أدوا "الموال"، حتى أنه لا يضارعه في ذلك فنان. ولذلك كان كل المتصلين به، وكل الداعين له، في فرح من الأفراح أو ليلة من الليالي، يحرصون على أن يسمعهم عبد الحي حلمي "الموال" الذي تفنن في أدائه تفنناً مبدعاً يستحق التسجيل.

ولكنه كان إذا جليس لأداء دور من الأدوار، وحاول ضابط الإيقاع أن يرشده إلى وجوب المحافظة على الإيقاع الموسيقى أبدى ضيقه وأظهر غضبه، واعتبر ذلك مساساً بكرامته، وحطا من قيمته، وخدشاً لفنه الرفيع الذي يؤديه بوحي من روحه الفنانة، وإحساسه المرهف.

ولذلك اشتهر عبد الحي حلمي بالتحرر من القيود التى كان يوسف فيها غيره من الفنانين، ولا يحيدون عنها أو يتخلصون منها قيد أنملة!

والحق أن الفترة التي عمل فيها عبد الحي حلمي "مذهبجياً" في فرقة عبده الحمولي، مكنته من الاتصال بأستاذه الذي حاول أن يخلص من التقاليد القديمة التي ورثها المصريون، على ما قيل، من رجل يسمى "شاكر أفندي" من أهالي حلب، وفد إلى الإقليم المصري في المائة الأولى بعد الألف.

كما كان عبد الحي حلمي من أوائل المطربين الذين غنوا في المحلات العامة والكازينوهات والمقاهي، ومن تلك الأماكن "ديقة الأزبكية" التي افتتحت رسمياً عام ١٨٧٢، وحضر الاحتفال الخديوي

وكبار رجال الحاشية، وجيء لها بأشجار من الصين والهند والسودان والمناطق الاستوائية، وبأحراش وحشائش وأزهار، كما استحضر لها المسئولون أنواعاً مختلفة من الطيور المائية والأسماك بعد تعقيمها، ثم ردمت عام ١٩٠٥م. بيد أنها أصبحت بعد تسويرها مرتعاً للطرب والغناء، وأقيمت فيها محلات للغناء الأوروبي. وأخرى للغناء العربي، وكانت أشهر المقاهي في هذه الفترة قهوة عثمان أغا وقهوة البسطوسي، وظهر في هذه المقاهي عبده الحمولي، كما غنى فيها محمد عثمان، ومحمد سالم الكبير، ومحمد السبع، وغنت فيها شهيرات المغنيات، ومنهن فاطمة الفاره، والوردانية، وساكنه، وعمر أفندي وغيرهن.

وكان لعبد الحي حلمي دور كبير في هذه الحديقة، حيث غنى بين أكنافها وردد مواروبله وأدوار عبده الحمولي ومحمد عثمان في مقاهيها، فجذب إليه جمهوراً كبيراً من الناس الذين كانوا يعشقون فنه، ويترددون على هذه الأمكنة ابتغاء سماعه والائتناس بفنه!

وكان الشيخ يوسف المنيلاوي من أشهر المغنين في عصر عبد الحي حلمي، وكان يوسف المنيلاوي ينافس عبد الحي حلمي في الشهرة والصيت، إذ اعتبر بعد موت عبده الحمولي ومحمد عثمان العندليب الأوحد في كل وادي النيل. وكان سامعوه من كبار القوم يؤمون مجلسه فوق تخته الكامل، تحت رئاسة المرحوم محمد العقاد الكبير، الذي ملك ناصية الغرف على القانون، ومعاونه ابراهيم بهلون الكماني العظيم، وأمين البزري، وغيرهم. كما اشتهر بإنشاد قصيدة "ته دلالاً فأنت أهل لذاك".

فلما انتقل الشيخ يوسف المنيلاوى إلى رحمة الله تعالى في ٦ يونيو عام ١٩١١ ازداد نجم عبد الحي حلمي التماعاً، وأصبح مقصد الناس من كل حدب وصوب، ومضى يسجل الأدوار التي غناها على مجموعة من "الاسطوانات" التي أقبل عشاقه على شرائها.

ولكن مهما يكن من شيء، فإن عبد احي لم يكن ملحناً، إنما أدى بعض أدوار الموسيقيين القدامى كما سبق أن أشرت، ولم يلحن سوى القليل من الأهازيج و"الطقاطيق"، مثل "حلالي بلالي، وأفاني الحبيب" وما إلى ذلك.

ويقول بعض مؤرخي الموسيقى المسئولين أنه لم يكن إلا مؤدياً لأدوار غيره من الملحنين، ولم يسلك سبيل الموسيقى المسرحية التي نبغ فيها داود حسني، مما مهد بعد ذلك لظهور روائع سيد درويش. بيد أنه كان من أقطاب غناء "التخت".

ومما يروى عن عبد الحي حلمي، أن مزاجه الخاص كان يدفعه أحياناً إلى ركوب متن الشطط، ومثال ذلك أنه بلغت به الجرأة أنه كان يهجر الحفلة التي تسلم أجرها إذا شعر بأي مضايقة، مولياً وجهه شطر إحدى الحدائق حيث يجلس في أحضان خميلة من الخمائل، أو على حافة غدير من الغدران، أو يتجه صوب النيل، حيث يجلس على ضفافه، ويمضي يناجي الطبيعة بكل ما أوتى من براعة فنية، وإذا كان في الاسكندرية، وشعر في عرس من الأعراس أو ليلة من الليالي بضيق،

انطلق كالطير الحبيس المنطلق من القفص صوب البحر حيث يجلس على حافة صخرة من الصخور يناجى الأمواج التي تلتطم بالشاطيء، والزبد الذي يتطاير كالقطن المندوف حول قدميه، دون أن يعبأ بأصحابه الذين تركهم في الحفل، أو أصحاب الفرح الذين دعوه إلى الغناء فيه وإطراب السامعين!

ويحكي أحد زملائه في فن الغناء، وهو الأستاذ إبراهيم شفيق مدير معهد الاتحاد الموسيقى بالقاهرة، أنه كان يغني معه ذات ليلة في أحد الأفراح، وكان عبد الحي حلمي يغني للرجال، أما ابراهيم شفيق فكان في الحرملك يغنى للسيدات، ومضى عبد الحي حلمي يشنف الآذان بأدوار عبده الحمولي ومحمد عثمان، وينتقل من المواويل إلى الطقاطيق إلى غير ذلك من الألحان. وفجأة شعر عبد الحي حلمي ببعض الضيق، فغافل المدعوين وانسحب في خفة، دون أن يشعر به أحد، وكان الحفل مقاماً في مدن الاسكندرية، فولى عبد الحي وجهه صوب البحر، وترك التخت والمدعوين قلقين، وانطلق وحيداً يغني للبحر ويردد ألحانه للموج!

وعلت الحيرة وجوه أصحاب الفرح، وأدركتهم الدهشة، بيد أن ذهولهم انحسر عنهم عندما علموا أن هذه عادته، وأن هذا دأبه! وفي هذه الليلة مضى ابراهيم شفيق يغني للرجال والسيدات معاً، حتى انقضى الليل وتنفس الصباح!

ولكن هذا السلوك الشخصي قد لا يغير في الحقيقة التاريخية الواضحة، وهي أن عبد الحي حلمي كان زعيماً من زعماء غناء التخت، وعنه تلقن أصول الفن المطرب المعروف صالح عبد الحي، وكان عبد الحي حلمي خالاً لوالدة صالح عبد الحي، ولذلك لزمه صالح في غدواته وروحاته الفنية، وكان صالح لا يزال في دور الطفولة، بيد أنه كان يهوي سماع خال والدته، ويلاحقه أينما كانت السهرة، ويجتهد في الاقتراب من مكان التخت، لكي يسمع ويحفظ ويطرب، ولما توفى خاله واتته الفرصة للغناء، وتدرج في مدارج الغناء على يد بعض العازفين، وفي مقدمتهم المرحوم محمد عمر عازف القانون، الذي يعتبر صاحب الفضل في إبرازه للجمهور.

ومن الحقائق التاريخية الثابتة، أن عبد الحي حلمي كانت له اليد الطولي في تلقين صالح عبد الحي أصول الغناء، ولذلك أضحى من أبر تلاميذه، فضلاً عن صلة القربى التيي تربطه به.

ومن الأدوار التي غناها عبد الحي حلمي "على روحي أنا الجاني" لمحمد عثمان، و"بستان جمالك" لمحمد عثمان، و"قدك أمير الأغصان"، أما الدور الذي لحنه عبد الحي حلمي فمنه هذه الأبيات:

حلالـي بلالـي وافـاني الحبيـب وجـانى ملالـي شـراب الزبيـب
ســـكرت بيـــده وزال القنـــاع وبسته في خده وآدي المتاع
حســبته يباعــد ويبــدي النفــور لقيتـه مهـاود فـي كـل الأمـور

زارنـــي نهـــاراً ووفـــى الوعـــود وجـاد لـي مـراراً بلمـس النهـود
نـديمي دخيلـك نـاولني المـدام ودعني أجيلك في حفلة شوام
ســلامي كلامـــي لــذاك الغــزال وكتـر هيـامي دا أصـله الجمـال
لو حضر وغنى ما أحلا السماع أنـا المغنـي كمـا ذاع وشـاع!

وقد يكون في بعض هذه الأدوار معان صريحة سافرة، ولكن هكذا كان حال الفن في ذلك الوقت، وكان أكثر الأدوار يتعلق بالشكوى والغزام والهيام وسهر الليالي، ولوم اللوام، والعزال والواشين، والمخاصمين، وذكر أحوال الصدود والإعراض، والوصال والدلال، وقد يستخدم المؤلف في التعبير عن خواطره وخلجات نفسه، أساليب الجنس في التأثير على الناس. وقد ظهر ذلك في الطقاطيق بشكل واضح ملموس وبصورة واضحة جلية كما في طقاطيق "تعلالي يا حبيب على مهلك"، و"يا جوز الاتنين يا مدلع" و"علي يا علي يا بتاع الزيت" و"يا امه الجدع دا منين" و"الساعة كام يا سي محمد" ونحو ذلك.

ولم يكن عبد الحي حلمي مندفعاً مع هذا التيار إلا بقدر تأثير البيئة الفنية فيه، بيد أنه لم يتسق مع هذا التيار الجارف الذي تفشى في الأوساط الفنية، بشكل الوباء الذريع، وكان منبعثاً من الطبقات الوسطى، ثم انتشر في جميع الطبقات، ثم لم يلبث أن تضاءل وانحسر في مجال ضيق محدود وهو مجال الحانات والمواخير التي لم تلبث أن أمحت من الوجود على ممر الزمن.

وصفوة القول أن عبد الحي حلمي لم يكن من هؤلاء المطربين المخنثين على أية حال، وما نجده من انحرافات بعض المعاني يعزي إلى المؤلفين الذين تأثروا بالأجواء الفنية المسيطرة على الفن في ذلك الوقت، وإن كان بعض مؤرخي الموسيقى ومنهم الأستاذ قسطندي رزق يقول عنه في كتابه عن الموسيقي الشرقية (أنه مغن غير فنان)، وكلنه كان يذهب مراراً عديدة إلى دار المرحوم "باسيلي بك عريان" ليسمع الاسطوانات القديمة ومنها قصيدة "أراك عصى الدمع" التي ألقاها عبده الحمولي.

وقد غني عبد الحي حلمي هذه القصيدة كما غنتها بعد ذلك كوكب الشرق الآنسة أم كلثوم، وسجلتها على إحدى اسطوانات شركة أوديون.

هذا وقد أدركت عبد الحي حلمي في أواخر حياته علة شديدة يقال غنها الذبحة الصدرية، فانتقل إلى رحمة الله في الاسكندرية وهو في الحلقة السادسة من عمره.

سيد درويش

نشأ الموسيقار سيد درويش في الاسكندرية، وتعلم القراءة والكتابة في مدرسة أولية صغيرة، واقعة في ناحية قسم الجمرك، ولما توفى والده احترف التجارة ثم تركها لضآلة دخلها، كما اشتغل أيضاً عامل بناء، وحمل الجردل، وقبضت يده على الفرشة، وأخذ يعاون البنائين في إتمام عملهم وكان صوته موضع إعجاب العمال الذين كانوا يعملون معه، وكان يجتمع بلفيف منهم عقب الانتهاء من العمل، ويجلسون في حمى البناء، وقد أوقدوا في الشتاء بعض الحطب، ومضى سيد درويش يغني بصوته الجميل فيخفف عنهم عناء النهار، وكدح العمل. وكان الغناء هو سلواه الوحيدة التي يقوى بها على إنجاز عمله، وتحفزه على النهوض بالعبيء الثقيل الملقى على عاتقه، وكان سيد درويش يغني في ذلك الوقت بعض المواويل والطقاطيق والقصائد الشائعة فيشنف الآذان ويسكر القلوب، وأثر في مشاعر أصدقائه العمال حتى اقترحوا على إنقاص مدة عمله على أن يقوموا هم بنصيبه من العمل اكتفاء بما يغنيه من أغنيات عذبة تسري عنهم الهموم والأحزان، وتدفعهم إلى العمل دفعاً. وقد حدث أن امتنع في أحد الأيام عن العمل بتاتاً استجابة لرغبة زملائه، وانطلق طيلة النهار كالعندليب يشجي أسماعهم بأرق الألحان، ورغم ذلك كان سيد درويش يتقاضى أجره كعامل مجد نشيط.

وألف سيد درويش عقب ذلك فرقة خاصة بإنشاء المولد النبوي، ولما آنس في نفسه الموهبة الفياضة للإجادة في ميدان الموسيقى سافر إلى مدينة حلب الشهباء محط رجال الموسيقى والفنانين ومهوى الأفئدة من كل جانب، وخالط هناك أرباب الفن، وقادة الغناء في ذلك العصر، واستجلى غوامض الفن، ووقف على أصول الموسيقى، وما كاد يلقى عصا التسيار في الإسكندرية حتى أم مجالس المرتلين في الكنائس اليونانية، وسمعهم مراراً وتكراراً فاصطبغت ألحانه بصبغة مصرية بيزنطية ثابتة، واختط لنفسه خطة خاصة تميز بها عن نظرائه وعمن سبقه من الملحنين وتطالعك في هذه الخطة روحه الصادقة، وحسه المرهف، وشعوره الدقيق وذوقه الرفيع، وإيثاره لروح التجديد التي تنسجم والذوق العصري وتتسق والعقلية الحديثة.

وقد ظهر ولع سيد درويش بالموسيقى منذ نعومة أظفاره، حيث كان يحرص على سماع الشيخ حسن الأزهري وبطانته في كل الحفلات التي كان يحييها في أحياء الإسكندرية، وكان يجلس مع السامعين في السرادق الذي يغني فيه، ولم تكن تفوته ليلة من ليالي الشيخ حسن الأزهري هذا، وكان صاحب صوت حسن، وأداء جميل، ولم يكن يخفي إعجابه به، ولذلك كان يعمد إلى تقليده ومحاكاته في الغناء، وكان سيد درويش في اليوم التالي للغناء يستعير قفصاً فارغاً من أقفاص الدجاج، ويضع عليه قطعة من الخيش ثم يجعل من القفص منصة يجلس عليها كالتي يجلس عليها الشيخ حسن الأزهري ثم ينطلق يحاكيه في فن الغناء.

وكان أبوه المعلم "درويش البحر" النجار البسيط الذي كان يشتغل في عمل "الطبالي" والرفوف وكراسي الحمام والقباقيب، في أحد أزقة كوك الدكة بالإسكندرية يضيق من هذا العمل، وينصحه أن يقلع عن هذه العادة "الذميمة" ويتجه في حياته إلى ما هو أجدى وأنفع، بيد أن سيد درويش لم يكن يلقى بالا لنصيحته، ولم يكن يستطيع انصرافاً عن إطاعة موهبته، وحدث أن وقع في يده كتاب في الموسيقي شتراه من بائع كتب قديمة عند سراية الحقانية فعكف على قراءته والاستفادة منه رغم أنه اشتراه بثمن بخس إذ لم يكن ثمنه يزيد عن نصف قرش!

واتصل سيد درويش بالشخ على الحارث وغيره من أقطاب الغناء في هذه الفترة، ممن كانوا يجيدون ترتيل القصائد الدينية وغناء القصايد والمواويل وسلك مسلكهم في الغناء، ومضى يغني في بعض المقاهي الوطنية، أدوار عبده الحامولي ومحمد عثمان، وداود حسني وغيرهم.

ولم يلبث الشيخ المعمم عقب ذلك أن اندمج في الوسط الفني اندماجاً، ولم يلبث أن اضطر إلى مجاراة الندماء وسمار الليالي، وهنا ترك زيه الأزهري، وارتدى البدلة الأفرنجية فوجد المجال أمامه فسيحاً للغناء في المقاهي الوضيعة في خي البغاء المسمى "بكوم بكير" أو الجنينة، أو ما إليها من أحياء عابثة ما جنة في هذه الفترة من التاريخ حيث اضطر أن يغني لفريق من بائعات الهوى، والساقطات، ورواد هذه المناطق من الرجال العابثين.

ولكن سيد درويش لم يدم في هذه المجالات طويلاً إذ سرعان ما خرج من هذه البؤر إلى النور واختلط بالمجتمع الراقي بوحي من نفسه الكريمة الفاضلة، وسكب فنه في أسماع شتى الطبقات. ولحن أدواراً عشرة خالدة وهي "في شرع مين" من مقام زنجران، "وضيعت مستقبل حياتي" من مقام قارجقاه، و"الحبيب للهجر مايل" من مقام ساركار و"يا فؤادي ليه بتعشق" من مقام عجم، و"أنا عشقت" من مقام حجاز كار، و"أنا هويت وانتهيت" من مقام حجاز كاركرد، و"عشقت حسنك" من مقام بسته نكار، و"ياللي قوامك يعجبني" من مقام نكريز، و"يوم تركت الحب" من مقام خزام، و"عواطفك" من مقام نوا أثر.

وعندما شبت ثورة ١٩١٩ كان غناؤه وفوداً لهذه الثورة، وشارك بغنائه في إحداث الحرب العالمية الأولى، ومن الألحان التي غناها في تلك الفترة "أحسن جيوش في الأمم جيوشنا"، وتلاه لحن "بلادى بلادي لك حبي وفؤادي"، ولحن:

"بنـــي مصـــر مكـــانكمو تهيـــا فهيـــا شـــيدوا للملـــك هيـــا"

ومن أروع ألحانه الوطنية هذا اللحن:

دقـت طبـول الحـرب يـا خيالـه وآدي السـاعة دي سـاعة الرجالـة

انظـــروا لأهلكـــم نظـــرة وداع نظرة ما فيش بعدها إلا الدفاع

وظل سيد درويش يغني مشاعر الجماهير الغفيرة التى تنصت إلى غنائه، وينزل إلى الأحياء الوطنية ليستمد ألحانه من شخصياتها دون تزويق أو تنميق، ودون تهويل أو نفور من الواقع، وشرع بعد ذلك يلحن أغانيه المشهورة عن تلك الفئات التي خالطها وهذه الأنماط من الناس التي عاشرها، وعاش معها. ومن تلك الأغاني: أغاني "الحشاشين" و"السقايين" و"البرابرة" و"السياس" و"الجرسونات" و"موزعي البوستة" و"سالمة يا سلامة" وما إليها. وفي ذلك يقول العقاد:

لله سـيد الـذي غنـى لكـم	زمنـاً فقـال العـارفون مصـور
وصف ابن مصر فليس يدري سامع	أأصـغى إليـه أسـامع أم مبصـر
إن تسـمع الحـوذي منـه رأيتـه	عجـلا فتـيمن فـي الطريـق وتيسـر
أو تسـمع النـوتي منـه حسـبته	فـي القيـل يقبـل بالشـراع ويـدبر
أو تسـمع الريفـي منـه لمحتـه	في الحقل يحصد في الأوراق ويبذر
أو تسـمع الجنـدي منـه نظرتـه	وعلـى أسـرته الشـعار الأخضـر
وإذا المسـارح راجعـت أيامهـا	لاذت بفـرد منـه لا يتكـرر

وأضفى سيد درويش بدائع فنه على الموشحات، وكانت قبله تتردي إلى الحضيض، وكان أغلب معاصريه من المغنين يشوهون ألفاظ الموشحات، ويفسدون لغتها، ويمسخون معانيها، فكثرت فيها الأغلاط اللغوية، والشطب واللحن، واستبدال الكلام الفصيح بكلام مضحك لا معنى له، زد على ذلك ما أضفى عليها هؤلاء المغنون من ألفاظ غير

عربية كما أن "المذهبجية" أو "السنيدة" كانوا يلقونها بصورة فظة ميكانيكية خلت من الرقة والحلاوة اللتين يحببانها إلى الأسماع.

وقد نهض سيد درويش يلحن طائفة كبيرة من الموشحات التي تعتبر أروع ما فى الموسيقى العربية، وأضفى عليها روائع ألحانه، ومن هذه الموشحات: "يا شادي الألحان" من مقام راست، و"منيتي عز اصطباري" من مقام نهاوند، و"للعذارى المائسات" من مقام راست، و"يا غصن البان" من مقام حجاز، و"صحت وجداً" من مقام راست، و"اجمعوا بالقرب شملي" من مقام عجم ونكريز.

وفي ميدان الطقاطيق والمغولوجات الشعبية قام سيد درويش بنصيب وافر منها، وهي: "زوروني في السنة مرة" و"شم الكوكايين خلانى مسكين" و"زفة العروسة" و"عرفت أخرتها" و"سيبوني يا ناس في حالي" و"مظلومة وياك" وغيرها من الطقاطيق الشعبية التي لم يكن سيد درويش يرددها في إحدى حفلاته حتى تنتشر في شتى الأحياء انتشار العبير في الأجواء أو النار في الهشيم، فإذا كل فرد يتغنى بها، وإذا فن سيد درويش يتردد على كل لسان.

وقيل إن سيد درويش ألف طقطوقة "زوروني كل سنة مرة، حرام تنسونى بالمرة" عندما قيلت له عبارة ابقوا زورونا ولو كل سنة مرة، على لسان سيدة من حسان حي "السنانية" بالقرب من الاسكندرية.

على أن سيد درويش كان له فضل عظيم في التجديد في ميدان الموسيقى المسرحية، ولحن كثيراً من الأوبريت، ومنها: شهرزاد، وهدي، وإش، وقولوا له، ورن، والعشرة الطيبة، وراحت عليك، وكلها يومين، وفشر، وغير ذلك من المسرحيات الغنائية. وقد لحن لفرقة نجيب الريحاني: العشرة الطيبة، ولو، وإش، ورن، وفشر، وقولوا له.

أما فرقة على الكسار فقد لحن لها سيد درويش روايات: "ولسه"، و"راحت عليك" و"أم أربعة وأربعين" و"مرحب" و"البربري في الجيش"، وقسماً من رواية الانتخابات.

أما فرقة منيرة المهدية فقد لحن لها سيد درويش رواية كلها يومين، ونصف رواية كيلو بترة، ولحن لفرقة عكاشة روايات: "عبد الرحمن الناصر" و"الدرة اليتيمة" و"هدى"، ولكن المنية أدركته قبل أن يستكملها، فأكملها داود حسني.

ولحن سيد درويش لفرقته الخاصة روايتي: "البروكة"، و"شهر زاد".

وهكذا كان سيد درويش يعيش للفن، ويكرس حياته لخدمته، والعمل على رفعته في شتى الوجوه، والميدين، من موشحات وطقاطيق، وأدوار إلى أوبريت، ومسرحيات غنائية، وأناشيد ومارشات.

وقد حاول أن يخلص الغناء من العقم الذي كان يرسف فيه، ومن التكرار الممل الذي كان يدور على ألسنة المغنين، ويخرج بفن الغناء من

محيط "التخت" إلى محيط "الأوبريت"، ويخلق فناً جديداً لم يكن منتشراً في العالم العربي في ذلك الوقت. واستمد بعض ألحانه نم مشاهير الموسيقيين الغربيين، فتأثر ببعض ألحان فاجنر في رواية شهر زاد، وأوبرا "تنهوزر" لفاجنر في مارش افتتاح رواية "كيلو بترة" لسيد درويش وتأثر بأوبرا "ريجولوتو" للفنان جوزيف فردي في رواية "البروكة".

وهكذا كان سيد درويش موضع التقاء الشرق والغرب في موسيقاه، وكان يطرح ما لا يتمشى مع الذوق العربي، ويبقى ما يسايره المزاج العربي في الموسيقى والغناء، ويضفي على لحونه فيضاً من نفسه وحسه الصافي.

وقد أثر الحب في حياة سيد درويش وفنه، ويروي أنه كان في مطلع شبابه معجباً بإحدى العوالم الحسان، وكانت تسمى "جليلة" وكان يغنى لها أعذب ألحانه، وحدث أن دبت جفوة بين جليلة وسيد درويش، وأغراها أحد الصائغين في حي الصاغة الصغيرة بالاسكندرية أن تهجره، وتقبل عليه، واسمه محمد عباس، وصنع لها هذا الصائغ خلخالاً نفيساً من الذهب الخالص حتى يجذب قلبها؛ فلما علم سيد درويش بهذه القصة ثارت نفسه، وضاق صدره حيث أنه كان يحب "جليلة" حباً جماً؛ ولما لم تجد الوسائل في رجوع جليلة إلى سيد درويش غني لها أحد ألحانه ومطلعه:

فـــي الصــــاغة الصـــغيرة روح   تشـوف العجايـب والعجـب

علــــى الشــــمال أول دكـــــان   صــاحبه جدع اسمه القبطـان

ويمضي سيد درويش يصف الدكاكين الموجودة في حي الصاغة حتى يصل إلى الدكان السادس وهو الذي يجلس فيه الصائغ الذي صنع لجليلة خلخالاً، وهنا يقول:

أمـــــا بــــأه ســــاتت دكـــــان   استنى عنـده يـابو القمصـان

تلقـى اللـي فيـه قاضـي النسـوان   عمــر اللـي زيـه مـا ينعتـب

ويمضي مصوراً قصة الخلخال فيقول:

بيقولــوا مـــرة عمـــل خلخـــال   ينفـــع ركــاب لثلاثــة بغــال

ســألت مــين لبســته يـا عيــال   قـــالوا جليلــــة أم ركـــب!

***

مــا أعــرفش إن كـان ده معلــم   وإلا ده للعشـــــاق ســــــلم

صـــبرك علهـــي بكـــره يضـــلم   وتشـوفوا فيـه كـل العجـب!

ولكن سيد درويش لم يلبث أن نسى حبه لجليلة عندما هاجر من الاسكندرية إلى القاهرة عام ١٩١٧، ويقال إن جليلة هذه حضرت إليه وهو يحيي إحدى الحفلات في ملهى "البوسفور" ولكنه أعرض عنها ولم يبادلها الهوى.

وقيل إنه كان متيماً بمطربة أخرى تسمى "حياة صبري" بيد أن بعض المتصلين به يذكرون أن صلته بهذه المطربة لم تكن إلا صلة العمل، والاشتراك في تسجيل بعض الاسطوانات الغنائية.

وقد تزوج سيد درويش في أخريات حياته بيد أنه اكتشف أثناء عقد القرآن أن الزوجة التي يقترن بها عجوز شمطاء، ففر أثناء كتابة العقد، ولم يلبث أن تزوج من سيدة أخرى وجد فيها ضالته المنشودة.

وكان سيد درويش في حياته الخاصة يميل إلى الهدوء، وإذا حدثت ضجة في بيته ارتدى ملابسه وخرج من المنزل حسماً للنزاع، مظهراً للأسرة جميعاً استياءه من ذلك، وكان يكره أن يرى أبناءه حزانى مهما كان الحزن ضئيلاً، ويقول لهم لا أريد أن أرى فيكم إلا البشاشة والضحك!.

وكان صريحاً إلى أبعد حد حتى أن صراحته كانت موضع سخط بعض أصدقائه والمتصلين به، حدث أن كان المرحوم زكي عكاشة صاحب فرقة مسرحية كبيرة، وكان يقدم على المسرح بعض الروايات الغنائية التي شهد سيد درويش طائفة منها، فلما انتهت الرواية سأل زكي عكاشة سيد درويش عن رأيه فيها فأجاب سيد درويش قائلاً: هذه الفرقة ينقصها شيء واحد! ففغر زكي عكاشة فمه وقال متعجباً وما هذا الشيء؟! فأجاب سيد درويش مطرب واحد!

ومنذ ذلك الوقت اشتد ضيق زكي عكاشة على سيد درويش، واغتاظ منه غيظاً عظيماً، وعندما علم بقصة حبه لحياة صبري وكانت في فرقة المسرحية طردها من فرقته شر طرده انتقاماً من سيد درويش!

وكان يتلقى اللحن من أفواه أصحابه، فلا بأس من أن يندمج مع أي طائفة من الطوائف؛ لكي تمتزج نفسه بنفوسهم فتطبع في نفسه صورة مشاربهم وتنعكس على ألحانه وأدواره، فتخرج للجمهور صورة حقيقية طبيعية، تدخل إلى قلب السامع دون استئذان. وكان يراجع الروايات عدة مرات قبل البدء في التلحين ليتمكن من معرفة شخصيات الرواية، وأجزائها التفصيلية حتى تصبر في مخيلته كأنها لوحة من لوحات السينما يستحضرها في أي وقت يشاء.

وأعلن سيد درويش نبأ موته قبل أن يموت، كان الفقيد يلحن مسرحية كليو باتره "ومارك أنطوان" فأعلن إليه أحد أصدقائه أن "فردي" ملحن عايدة قد أفل آخر خيط من شعاع حياته قبل أن يتم كيلو باترة وأنه قضى نحبه قبل أن يلحن من فصولها الثلاثة غير فصل واحد لا غير فمسح الشيخ سيد درويش على جبينه بيده وقال: والآن أعلن إليكم أني سأموت قبل أن أتم تلحين الرواية، وكأنما كان الرجل ينطق بلسان الغيب فقد شرع يلحن الفصل الأول حتى انتهى منه، وأمسك بالفصل الثاني، فلما وصل إلى الفصل الثالث مضى شوطاً غير بعيد في تلحينه، وعنذاك خبا ذلك الضوء الباهر، وانطفأت هذه الشعلة المقدسة، وأخذ نعيه يضع

على الصدور عبئاً فادحاً من الأسى واللوعة، وكان ذلك في يوم ١٥ سبتمبر عام ١٩٢٣.

وقد لفظ سيد درويش أنفاسه الأخيرة في منزل شقيقته بمحرم بك ثم دفن بالمنارة، وهو اسم أحد مدافن المسلمين بالاسكندرية، وتقع في متاهة من الأرض بعيدة عن مظاهر العمران، وعلى مقربة من حدائق الشلالات هناك.

وعند موته رانت على البلاد العربية رنة أسف وأسى، ورثته الصحف والمجلات أحر الرثاء ودبج الأدباء والكتاب أصدق المقالات في التعريف بفنه وبيان فضله، كما رثاه الشعراء بعيون أشعارهم، ومن الذين نظموا قصائد الرثاء فيه، أمير الشعراء أحمد شوقي الذي رثاه بقصيدته المعروفة "الشعاع النابغ" وجاء فيها:

إنمـــا يبكـــي شـــعاع نـــابغ	كلمـــا مـــر بـــه الـــدهر أضـــاء
مـــلأ الأفـــواه والأســـماع فـــي	ضـجة المحيـا وفـي صـمت الفنـاء
حـــائط الفـــن وبـــاني ركنـــه	معبـــد الألحـــان اســـحق الغنـــاء
بلبـــــل اســـــكندري أيكـــــه	ليس في الأرض ولكنه في السماء
هـــبط الشـــاطيء مـــن رابيـــه	ذات ظـــــل وريـــــاحين ومـــــاء
يحمـــل الفـــن نميـــراً صـــافياً	غـــدق النبـــع إلـــى جيـــل ظمـــاء
حـــل فـــي واد علـــى فســـحته	عـــزت الطيـــر بـــه إلا الحـــداء

أيها الدرويش قم بث الجوي   واشرح الحب وتاج الشهداء
أضرب العود تفه أوتاره   بالذي تهوى وتنطق ما تشاء
حرك الناي ونح في غابه   وتنفس في الثقوب الصعداء
واسكب العبرة من آماقه   من تباريح وشجو وعزاء
واسم بالأرواح وارفعها إلى   عالم اللطف وأقطار الصفاء

كما بين الشاعر عباس محمود العقاد وجوه براعته في الفن في قصيدة أطلق عليها "موسيقى خالد" ونظمها بمناسبة الذكرى الثانية عشرة لوفاته وجاء فيها:

وإذا المسارح راجعت أيامها   لاذت بفرد منه لا يتكرر
قالوا تفرنج بالغناء وإنما   هو مؤثر في الفن لا متأثر
عرف الأغاني واللحون كما جرت   في عرف من نطقوا بهن فعبروا
أمم إذا غنت فليس غناؤها   لغو المجانة بل معان تؤثر

هذا وقد مات سيد درويش في الحادية والثلاثين من عمره، إذ ولد عام ١٨٩٣، وانتقل إلى رحمة الله عام ١٩٢٣، وهو لا يزال في نضارة العمر، وعضارة الشباب، وذروة المجد الفني الرفيع.

ألمـــظ

كانت مغنية جذابة ضرب بصوتها الأمثال في الحلاوة والعذوبة، وكانت تسمى "سكينة" وأطلق الناس عليها "ألمظ" أي الماس تشبيهاً لها بالماس وما له من بريق أخاذ، ورونق باهر، وقيمة غالية، نادرة المثال. وكانت واسعة العينين، كثيفة الحاجبين، يتدلى على صدرها الجميل عقد نضيد رصع بالجواهر الكريمة، والأحجار النفيسة، كما يتدلى من أذنيها حلق باهر يلتمع تحت الأضواء التماعاً، ويكلل رأسها تاج جميل من الزينة تبهر به الأنظار والقلوب جميعاً. وكانت خفيفة الروح، حلوة الحديث، رخيمة الصوت، سريعة البديهة، ترتجل غناءها للمناسبات أحياناً دون مشقة أو عسر بل تدفق وطرب يثير حماسة الحاضرين.

ولم تكن ألمظ من أسرة موسرة، إنما انحدرت من أسرة فقيرة، وعشقت الغناء، ومالت إلى الطرب، وتضاربت الأقوال في صناعة والدها، فمنهم من قال أنه كان بناء، لأنها كانت تحمل قارب المونة على رأسها وتقدمه إلى البنائين وهي تغني فتطرب السامعين، وتميس كالغصن الرطيب، وتتأود ذات اليمين وذات الشمال. وقيل أن والدها كان صباغاً بيد أنها كانت تعمل مع البنائين حتى تساعده على كسب القوت، ونيل الرزق، وكان البناؤون يرتاحون إلى العمل معها، ويحرصون على معاونتها لأنها كانت تجعل الصعب من الأمور يسهل، والعصى من الشئون يهون، والقصى من الأمال يدنو، فإذا العمائر تضرب أعنقها في الفضاء، وإذا

البناؤون يمرحون في بهجة وانشراح بعدما تحقق لهم ما أرادوا بفضل هذا الصوت الناعم الحالم الذي كان يتصاعد عذباً رخيماً من حنجرة "ألمظ".

واتصلت ألمظ بالمطربة "ساكنة" وهي أقدم المغنيات، وظهرت في عهد عباس الأول، وازداد نجمها سطوعاً في عهد سعيد وأصبح الناس يفدون إلى القاهرة لسماعها من كل صوب وحدب، ورغم أنها كانت "عالمة" من العوالم المشهورات في هذه الفترة فإن الله كان قد وهبها حنجرة صافية وصوتاً رقيقاً، فجذبت إليها العرب والأتراك حتى أن العامة أطلقوا عليها لقب "بك" أمعاناً في الأعجاب والطرب منها.

وفي الوقت الذي بلغت فيه "ساكنه" الذورة، أخذ نجم ألمظ يلمع شيئاً فشيئاً حتى استحال قمراً منيراً في سماء الفن، وأصبحت ألمظ خطراً مستطيراً يهدد مجد ساكنه بالأفول، ففكرت في حيلة تمنع منافستها في ميدان الفن، وهي أن تضمها إلى فرقتها حتى تكون تابعة لها وحتى تعمل تحت إشرافها، واستطاعت بهذه الطريقة أن تضع الفأر في المصيدة، وتطغى عليها في الحفلات التي تقدمها، والبرامج التي تعدها، وتجعل لنفسها قصب السبق في هذا المضمار، ولكن المعدن النفيس لابد أن يظهر ولو بعد حين، ولابد للجوهرة الغالية أن تلتمع مهما طمسها التراب، فارتفع نجم "ألمظ" وتنبه الناس إلى مواهبها العظيمة، وصوتها الحنون؛ وسرعان ما تألق نجمها مرة اخرى، واستنارت بضوئه جنبات سماء الفن، وهنا حقدت عليها "ساكنة" وظهر أثر حقدها واضحاً جلياً فاضطرت "ألمظ" إلى تركها والاستقلال بفرقة خاصة، تضارب بها

فرقة أستاذتها السابقة، ولم تلبث أن ازدهر مجدها، وخبا نجم ساكنة، وقضى عليها قضاء مبرماً.

ويقول الرواة أن صوت "ألمظ" كان حديث المجتمع العربى جميعاً، وكان الناس يحضرون من كل فج عميق للاصغاء إلى صوتها الرخيم، وإذا صدق قول فاجنر الموسيقى الشاعر بأن الموسيقى مؤنثة وكانت امرأة، فإن هذه المرأة لم تكن في هذا العصر إلا "ألمظ" المغنية التي سار بذكرها الركبان.

وكان الله تعالى قد وهبها قريحة فياضة، وبديهة سيالة، ولذلك كانت ترتجل الأدوار ارتجالاً؛ ومن ذلك ما يروي عنها أنها أرادت أن تعبر النيل عند الجيزة، وكان النيل وقتذاك خالياً من الجسور في هذه المنطقة، فغنت لعبده الحمولي الذي ركب إحدى "المعديات" ليذهب إلى عرس هناك هذا الدور:

عدي يا المحبوب وتعالي ... وإن ما جيتش أجيلك آنا
وإن كان البحر غويط ... أعمل لك على القلب سآلة[٥]

وكان عبده الحمولي يعجب بألمظ أشد الإعجاب، ويطرب من فنها، وتمنى أن تشاركه مجده الفني، وتعاونه في إقامة الأفراح إذ كان أَحاب الفرح يحتمون على المطرب أن يستحضر مغنية أو مضحكاً ليقوم

(٥) يقصد الثقافة التي يصعد فوقها البناؤون.

بتسلية الجماهير أثناء إصلاح الآلات أو الانتظار لوصلة أخرى، فأعلن لها عن رغبته في أن تشاركه في إقامة بعض الأفراح فقلبت هذه الرغبة عن طيب خاطر، فكانت تشغف الآذان بروائع عبده الحمولي، ومحمد عثمان وغيرهما، ولم يلبث أن دب الحب بين قلبيهما وأدركت النشوة قلبها، حيث أنها كانت تحمل له حباً مكتوماً، وعشقاً لا تستطيع أن تعبر عنه وهو جياش بين الجنوب وقد سبق إن سمعها عبده الحمولي وهي تغني الدور الآني، فأحس بأنه المعنى المراد وأحس أن كل آهة تصدر من "ألمظ" إنما هي من تباريح حبها له، ولواعج هواها نحوه!

سيدى أنا أحبك لله وربنا عالم شاهد

لا صبر على أحكام الله لما يبان لي معاك شاهد

خبط الهوى ع الباب، قلت الحليوه أهو جالي

أتاريالهوى كداب يضحك على القلب الخالي

فلما سمع عبده الحمولي منها هذا الدور انفجر وهو يترنم مغنياً مرتجلاً هذا الدور:

روحـــــى وروحــــــك حبايــــــب   مـــن قبـــل دي العـــالم والله

وأهـــــل المــــــودة قرايـــــــب   .... إلخ

ومنذ ذلك الوقت حرص عبده الحمولي على الالتقاء بألمظ كلما سنحت الظروف، وجاءت الأيام، وجعل يزورها بين الحين والحين في

دارها بدرب سعادة بمنطقة الحمزاوي بالقاهرة– وفي ذات يوم بينما كانت تسقى أصص الرياحين والورد في شرفتها سقطت وردة فوق رأس عبده الحمولي بينما كان ماراً في الشارع فتناولها، وقال لها. أيصح منك حصول ذلك يا روحي؟ فأجابته وهي باسمة الثغر، وضاءة الجبين، والنشوة مليء أعطافها، ومليء حناياها: الوردة وقعت على الفلة وأنا ذنبي إيه؟! فازداد هيامه بها حتى جعل يمر كثيراً من تحت النافذة، فترميه بالزهر، ولسان حالها ينشده الأغنية الشعبية القائلة: من الشباك لأرمي لك حالي" وكانت النافذة كما كانت الشرفة موضع لقاء الحبيبين، وتحتها نفث عبده الحمولي أحر ألحان الغرام، وأعذب عبارات الهوى.

لذلك لم تجد "ألمظ" غضاضة في قبول طلب عبده الحمولي للاقتران بها، ولم يلبث أن أقيم "فرح" عظيم ابتهاجاً بزفاف مليكي الطرب عبده الحامولي وألمظ اللذين طالما شنفا الآذان بأروع الأغاني في الليالي والأعراس!

واشترك في إقامة حفلة الزفاف أحمد الليثي كبير العازفين، بالعود، وابراهيم سهلون أمير الكمان، ومحمد خطاب شيخ الآلاتية، وغيرهم من أساطين الفن، وغنى عبده الحمولي لنفسه، وطفق يطرب المدعوين ويحييهم ويشركهم في ليلته الساحرة التي جاد بها الدهر الضنين.

وعندما اقترن عبده الحمولي "بألمظ" منعها من الغناء، وقد حدث أن أمر الخديوي إسماعيل ذات ليلة بإحضار "ألمظ" لتغني في بعض

قصوره، وهو في عزة سلطانه، ولشدة بطشه لا يعصي له أحد أمراً، ولا يحلم أحد في نومه أن يقف موقف المعارض في رغبته، أو الممانع لإشارته، فامتنع عبده الحمولي عن إرسال زوجته إلى قصر الخديوي وأبي أن تخرج "ألمظ" من بيته، فعاود الخديوي الطلب بالتشديد. بيد أن عبده الحمولي أصر على موقفه وأبى أن يرسلها إلى القصر، مما دفع الخديوي إلى استخدام القوة لتحقيق مآربه، فأرسل بعض الضباط والجند لاقتحام بيت عبده الحمولي، فوقف عبده الحمولي أمامهم كالأسد الهصور يدافع عن عرينه، وفضل الموت على أن تخرج زوجته مرة أخرى إلى الغناء، ولما وجد عبده الحمولي نفسه وحيداً أمام هذه القوة العسكرية الباطشة التي تقف ببابه، طلب من الضباط والجند الانتظار والتريث قليلاً حتى يجمع جماع نفسه، وتهدأ نفسه، ودلف عبده الحمولي إلى باب جاره، ومنه خرج إلى الطريق، ومضى يبحث عن صديق يخلصه من هذه المحنة، ويخرجه من هذه الأزمة، فتوجه صوب منزل الشيخ على الليثي شاعر الخديوي إسماعيل وأحد أصفيائه المقربين، وبث له عبده الحمولي شكواه، وأخبره بنية الخديوي، وطلب منه الوساطة في هذا الموضوع حتى لا تعود ألمظ مرة أخرى إلى الغناء، ولمح الشيخ على الليثي الدموع تنهمر من عيني عبده الحمولي، وأحس كلماته تختنق في حلقه، وألفاظه تضطرب في صدره، فرق قلبه ولأن فؤاده، وعول على مساعدته، وهرع إلى قصر الخديوي، وطلب مقابلته في أمر عاجل ذي بال، والتمس عند مقابلته إعفاء "ألمظ" من الغناء، وما

زال الشيخ على الليثي يرجو الخديوي ويستعطفه حتى لأن قلبه، وعدل عن رغبته في دعوتها إلى الغناء في قصره!

وانفضت القوة العسكرية من أمام منزل عبده الحمولي عندما بلغها الأمر العالي بإعفاء "ألمظ" من الحضور، ولكنها تركت عبده الحمولي محطم الأعصاب، مهدم الكيان، مكروب النفس، مقطوع النفس!

وخلف هذا الحادث في نفس عبده الحمولى جرحاً غائراً لا يندمل، وظل يؤلمه ويزعجه حتى أخريات أيامه، وتولد منه انهيار عصبي تام أخذ يلم به بين الفينة والفينة، حتى أدركه ذات يوم، وسقط على الأرض مغشياً عليه، وهو يئن ويتألم، وكان الصداع يكاد يفجر رأسه تفجيراً من هوله، وما زال به هذا الانهيار حتى أسلمه إلى الأمراض التى أفضت به إلى الموت.

ولكن عبده الحمولي شاء له القدر أن يفقد قسيمة عمره وشريكة حياته "ألمظ" قبل أن يودع الدنيا، ويفارق الحياة، ففقدها أنضر ما يكون شباباً، وأعظم ما يكون جمالاً، وأبعد ما يكون أملاً، وعندما جاءه نبأ نعيها طارت نفسه شعاعاً من أجلها، وانكفأ يبكي بدمع هتون، وكبد محروقة، وفؤاد مفرق، ومضى يغني في حسرة وأنين.

شربت الصبر من بعد التصافي ... ومر الحال ما عرفتش أصافي
يغيب النوم وأفكاري توافي ... عدمت الوصل يا قلبي على

دور

علـي عينـي بعـاد الحلـو سـاعة   لكـن للقضـا سـمعاً وطاعـه!

لأن الـروح فـي الـدنيا وداعـه   عدمت الوصـل يا قلبي علي

وقيل إنه ترنم بالشطر الأول من البيت الأول على هذا النحو: "شربت الصبر من بعد التهاني".

وهكذا ودعت ألمظ الدنيا، واختفى ذلك الصوت الحلو الرخيم الذى ظل يجلجل في الآذان فترة وجيزة، في نبرة ساحرة، وأداء مبين وهكذا تقبل الفنان عبده الحمولي وفاة زوجته بدموع من العين، ودموع من الغناء، وانفرط عقد الماسة الألاقة التى كانت تزين صدر الفن في البلاد.

وعندما علم الخديوي إسماعيل بوفاتها حزن عليها حزناً شديداً، وأمر بأن يمر جثمانها من ميدان عابدين، وكان ذلك ممنوعاً في ذلك الوقت منعاً باتاً إكراماً لفنها، وتقديراً لمجدها، وأطل على جثمانها من شرفة القصر، ثم ترحم عليها.

وفي الجنازة كان يسير خلف النعش رجل قد هذه الحزن، وهو يلعب بأنامله بحبات المسبحة الكهرمان أو العنبر التي كان يفركها بكلتي يديه، في حركة عصبية بادية، والدموع تنهمر من مآقيه.. ولم يكن ذلك الرجل سوى "عبده الحمولي" زوجها الحزين!.

محمد عبد الوهاب

كان محمد عبد الوهاب.. يسمى في مطلع حياته الفنية مطرب الملوك والأمراء، لعلو قدره واعتزازه بمنزلته الفنية والحرص على كرامته وكرامة إخوانه الفنانين واشتراكه في مجالس وجوه القوم وعليه الناس، وكان يضحي بإقامة الحفلات الكبرى ولا يكترث بما يصيبه من خسارة مالية في سبيل الاحتفاظ بكرامته والدفاع عن إخوانه المشتركين في التخت الموسيقي وخدث أن انسحب من إحياء إحدى الحفلات الكبرى عند أحد الأعيان عندما شعر أن خدشاً قد أصاب كرامة زملائه الفنانين وكان يمنح زملاءه في التخت إعانت مالية سخية حتى يظهر تخته جديراً بأن يحمل اسمه اللامع ومجده الفني، وظل يحافظ على رسالته الفنية ودعوته الموسيقية إلى يومنا هذا دون تردد أو إحجام.

وكانت أحلى ندواته ومجالسه في بيت أمير الشعراء أحمد شوقي الذي أطلق عليه كرمة بن هانيء في الجيزة بالقرب من حديقة الحيوان. وكان عبد الوهاب لا يزال في ذلك الوقت معجباً بصوته وشبابه.. وكان يرسل سوالفه إلى منتصف خديه... ويرتدي بنطلونه الضيق من الأطراف عند الحذاء وياقته المنشأة التى يضمها رباط العنق الأسود الجميل... وكان عبد الوهاب يطرب كلما تجمع حوله المعبجون وهم يقولون يا عبد... يا عبد.

وكان أمير الشعراء يحرص كل الحرص على دعوة عبد الوهاب إلى مجالسه، وقد سر كل السرور عندما كتبت إحدى المجالات الفنية، منذ أكثر من ربع قرن تقول عنه (المصور في ٦ يناير عام ١٩٢٨):

"إن عبد الوهاب هو الموسيقي الشهير والفني العبقري والثمرة الناضجة لنادي الموسيقى، والبلبل الذي يهز القلوب بنغماته، وينعش النفوس بنبراته. يبكي العيون إذا ناح من آلام البعاد، ويشرح الصدور إذا شدا بأهازيج الوصال، وهو في فنه يمزج شعوره الرقيق بمقاطع الغناء، كما تمزج الراح بالماء.. فيجعل السامعين في نشوة الطرب والإعجاب. وصوت عبد الوهاب ليس من الأصوات المعلقة بل هو صوت حنون شجى نقي النبرات متموج النغمات حنون إلى حد بعيد. يميل كثيراً إلى ما تجود به عبقرية أمير الشعراء من راقي الغزل ورقيق النسيب، ويلحن لنفسه ولغيره، ويستعير من الموسيقى الغربية، مع المحافظة على الموسيقى الشرقية، أدخل الهارموني في أدواره وهي خطورة في تقدم المويقي الشرقية وهو كثير التموجات في آهانه..".

وقد حمل عبد الوهاب وقتذاك هذه القصاصة من المجلة، إلى كرمة ابن هانيء والفرحة لا تسعة، وقضى الليلة في بشر وإيناس مع جمع من الأدباء والشعراء.

ولما عقد قران نجل أمير الشعراء الأستاذ علي شوقي، كان عبد الوهاب نجم الحفلة اللامع، وقد ابتدأت الحفلة بأوركسترا شركة ترقية

التمثيل العربي برياسة الأستاذ عبد الحميد أفندي على ثم بموال تهنئة للعريس نظم وإلقاء الأستاذ حسن أفندي أنور ثم قصيدة مضناك جفاه مرقده يغنيها محمد بك عزب ثم قطعة غناء أفرنجية على فيولنسل للأستاذ ادوارد افندي فارس، ثم فاصل موسيقى للأستاذ محمد عبد الوهاب.

وكان القسم الأول من غناء عبد الوهاب موال (قلبي غدر بي) نظم أمير الشعراء أحمد شوقي، ثم دور قديم، وكان القسم الثاني من نظم أمير الشعراء أيضاً وتلحين وغناء محمد عبد الوهاب ويشتمل على ما يأتي:

أ- موال يا قلبي ما حد آسي.
ب- دور يا ليلة الوصل استنى أفرح ببدري واتمتع.
ج- نشيد الزفاف (دار البشاير مجلسنا).
د- قصائد...

وقد جاء في موال حسن أفندي أنور:

كوكب سعودك ظهر في وقت ما هليت
واستبشر اللي كتب اسمك على البيت
ما حد خلف مثالك في الشرف والبيت
انت الأكابر جدودك وأنت مثل أمير

للشعر والفن في عصره ورب البيت

أما محمد عبد الوهاب فقد استهل نشيد الزفاف بقوله:

دار البشـــــاير مجلســـــنا　　وليـــــل زفافـــــك مؤنســـــنا
إن شـــالله تفـــرح يـــا عريســـنا　　وإن شـــالله دايمـــا نفـــرح بـــك

وكان محمد عبد الوهاب يصاحب أمير الشعراء أحمد شوقي في كثير من غدواته وروحاته وكان يقتبس من محيط أدبه وبحر معارفه، ويتزود من عذب أشعاره، وجميل خياله، وبديع معانيه، وكان عبد الوهاب يعرض على أمير الشعراء آراءه في الفن والموسيقى فيهتز لها أمير الشعراء طرباً، ويلمح أمارات النجابة واضحة جلية على مخايله، وحدث أن سافر محمد عبد الوهاب مع أمير الشعراء أحمد شوقي إلى لبنان وخاضاً بين أرباض لبنان ورياضها وجاساً بين أوديتها وصعدا فوق روابيها، واستمعتا بالطبيعة الخلابة الجذابة بين أحضانها، فتركت هذه الرحلة في نفس عبد الوهاب أثراً جليلاً لا ينسى وزادته التصاقاً بأستاذه أحمد شوقي كما زادته تعرفاً على مواطن الفتنة ومهابط الجمال.

وتشاء الأقدار أن يعلم محمد عبد الوهاب وهو في لبنان بوفاة والده فيشتد حزنه ويزداد جزعه لأنه انتقل إلى رحمة الله دون أن يراه ولكن حبه نما على الأيام لوالدته وظل لها ابناً باراً رحيماً، وكان يجد في صوتها وهي تناديه حلاوة أحلى من حلاوة الموسيقى، ونغماً أطرب من غنات الملائكة، وغدت أمه وحيه وإلهامه، وسحره وأحلامه.

وحدثت لعبد الوهاب مفارقات عجيبة وهو في صحبة أمير الشعراء أحمد شوقي إذ تتبع خطاهما شابان وهما يسيران في الطريق وأوشكا أن يقتلاهما لولا أن توقفا في اللحظة الأخيرة وهما يشهران مسدسيهما نحوهما واتضح أن الشابين كانا ينويان اغتيال عبد الخالق ثروت، فأخطأ السبيل لما بين عبد الخالق ثروت وأحمد شوقي من شبه كبير، وقد أدرك الشابان هذه الحقيقة في النهاية فأخليا سبيلهما وهما يرتعدان من الخوف والفزع.

هذا طرف من حياة عبد الوهاب منذ ربع قرن وهي فترة حبيبة إلى نفس عبد الوهاب لا يذكرها إلا ويبعث من أعماقه زفرة حادة طويلة وتتراءى مواكب الذكرى أمام عينيه فقد كانت بداية مجده الفني ونبوغه في عالم الغناء..!

أم كلثوم

هذا الصوت الملائكي الذي يتردد حلواً رخيماً فيسكر آلاف السامعين، ويشنف آذان الملايين عن طريق المذياع والتليفزيون... له قصة موطوية في سجلات السنين.

كان والدها يمارس فن الغناء. وكانت أم كلثوم وشقيقها يترددان في كتاب بالبلدة طماي حتى إذا شب أخوها أرد والده أن يعلمه هذا الفن ليستعين به في إحياء الحفلات الغنائية التى كان يشترك فيها بين الحين والحين وأخذ يلقنه الأدوار والموشحات، وذات يوم كلفه أن يحفظ موشحاً من الموشحات بيد أن الابن لم يستطيع أن يحفظ الموضح جيداً، وأخطأ في كلامه تارة، وفي تلحينه تارة أخرى، فمضى الوالد يعنفه ويزجره ويوجه إليه أشد اللوم والعتاب، ولكن أم كلثوم كانت قد استطاعت أن تحفظ هذا الموضح عن ظهر قلب، وأحست في نفسها رغبة قوية لتنشده أمام أبيها بيد أنها خافت منه وخشيت من سطوته وعلى حين غرة وجدت في نفسها الشجاعة لتواجه أبيها، وأعلنت له عن رغبتها في ترديد الموشح، فانفجر منها غاضباً بيد أنها هدأته، فلما سكت عنه الغضب عاودت الحديث معه، وألحت في إنشاد الموشح فسخر منها أبيها وقال لها: يا بت اتلهي إللي أخوك ما هو عارف، حاتعرفي أنت، فنزلت هذه العبارة عليها نزول الصاعقة، ولم تستطع أن تجادله، ودلفت

إلى حجرة مجاورة تبكي وتنتحب، فلما استرجعت عواطفها وعاد إليها إتزانها، انطلقت تنشد الموضح في الغرفة فسمعها أبوها من الغرفة المجاورة، وحينئذ تحقق له ما لا بنته أم كلثوم من موهبة فنية مصقولة وملكة غنائية ممتازة، فاستدعاها وطلب منها أن تغني أمامه فتملكتها الفرحة، ومضت تغني بصوت طروب، اهتز منه والدها اهتزازاً، ومنذ ذلك الوقت سمح بالغناء وتعلق بها سامعوها تعلقاً شديداً.

ومن أجل هذا الجمهور ظلت تضحي أم كلثوم منذ نشأتها حتى اليوم، وقد حدث أن دعيت لإحياء حفل في قرية بالقرب من مسقط رأسها في ليلة قارسة البرد رغم أنها كانت مريضة بالدوسنتاريا وقطعت ثلاث ساعات متواصلة على الركائب حتى وصلت إليها.

وكانت أم كلثوم في أول عهدها تغني بين حقول القطن ومروج الزرع، فسحرت الفلاحين بغنائها، ولما علم رسمى بك محافظ دمياد في ذلك الوقت بسحر صوتها، أرسل يطلبها لتحيي بعض الحفلات في دمياط، وأقام موظفو المدينة مسرحاً صغيراً ساهموا في إنشائه بما جمعوا من تبرعات ليستمتعوا بصوت أم كلثوم العذب التي كانت تغني لهم دور "مولاى كتبت رحمة الناس عليك"، وكان هذا الدور هو فاتحة الشهرة وطليعة المجد لهذه المطربة الموهوبة.

ومن الطرائف التي صادفتها أم كلثوم في حياتها الفنية أنها دعيت ذات ليلة لإقامة فرح في بلدة القرشية، فلما وصلت مع تحتها لم تجد

فرحاً، ولم تجد شيئاً يشير إلى ذلك بيد أن الأهالي طلبوا منها الغناء، فلما شرعت تغني تقدم أحد الداعين وقال لأم كلثوم وتحتها! "لما تشوفوا فانوس اتكسر قوموا وادخلوا في الغرفة إلى جانب السرداق".

وازدحم السرداق بالحاضرين ازدحاماً شديداً وما كادت تتم الدور الأول حتى أخذت الفوانيس تتكسر وعلمت أم كلثوم أن معركة شديدة بين أهالي البلدة لخصومة شديدة بين الطرفين منذ القدم. وحينئذ دلفت أم كلثوم الغرفة مع تختها حتى تتجنب هذه المشاجرات وعلمت أنها كانت طعماً لنشوب المعركة بين الطرفين.

وجاءت أم كلثوم إلى القاهرة عام ١٩١٨ ولم يكد يستقر بها المقام في المدينة حتى تلقفها الدكتور أحمد صبرى الموسيقار المشهور وتعهدها تعهداً كبيراً ووضع لها أكثر من ثلاثين لحناً ذاعت في كل مكان وجرت على كل لسان وسكنت أم كلثوم في منزل متواضع في شارع قوله في عابدين، وكانت في ذلك الوقت تلبس الكوفية والعقال ولا تتحرج من حضور الحفلات وإحيائها، حتى رآها الموسيقار القصبجي وأعجب بصوتها فشجعها بألحانه وكان القصبجي في ذلك الوقت صديقاً للشاعر أحمد رامي، ولا يكاد يفترق عنه في مكان من الأمكنة فطلبت منه أم كلثوم أن يؤلف لها بعض الأغاني فنظم لها رامي الدور المشهور:

خـــايف يكـــون بـــك فـــي شـــــــــــفقة علـــــــــــى
وأنــت اللــي فــي الــدنيا لــي ضـــــــــــي عنيـــــــــــه

والواقع أن أم كلثوم لا تنسى الليلة الأولى التي وصلت فيها إلى القاهرة فقد فقدت فيها كل ثروتها من مال، وكانت هذه الثروة لا تتعدى خمس عشرة جنيهاً بالتمام والكمال كانت أم كلثوم قد جمعتها من المليم والقرش والقرشين والخمسة قروش التي كان يتحفها بها والدها بين الحين والحين وقد تمكن نشال من سرقة كيسها وسط زحام المعجبين ولم تتبين هذه الحقيقة إلا عندما عادت إلى المنزل فتملكها الخزن واستبد بها الغم وأصرت ألا تبيت في القاهرة ليلة أخرى فسافرت على الفور عندما تنفس الصباح وأشرقت الشمس وهي تدعو على ذلك النشال الذى سلبها "تحويشة العمر" من المال.

ولكن المعجبين استطاعوا أن يردوها عن مغادرة القاهرة فأقامت في القاهرة كما سبق أن وضحنا وحدث أن ملت أم كلثوم حياة البيت فكانت تقضي أياماً في فندق "جوردن هاوس" وكان من نزلاء هذا الفندق المرحوم محمد البابلي المعروف بخفة روحه ورعايته وكان من عادته أن ينتهز فرصة بعد الغذاء ليجالس مضيفة الفندق وكانت غادة حسناء هيفاء القوم جميلة الوجه وكانت أم كلثوم تحاول أن تضايقه فكانت تخرج من غرفتها على زعم أن تحضر شيئاً أو تتناول كوباً من الماء فيغتاظ محمد البابلي من مرورها وكان يقول لها هو كل ساعة شرب فلما ضاقت به الحيل شكاها إلى أبيها وأخبره أنه يعرف السر في حلاوة صوت عبده الحامولي وهو أنه كان يعتاد النوم بعد الغذاء فنصح الوالد ابنته أم كلثوم باتباع طريقة عبده الحامولى، ولكنها لم تطع أمره فاضطر أن يلقيها على السرير ويغلق عليها الباب وقد ارتاح محمد البابلي من هذا التصرف. ولم

تخرج أم كلثوم من غرفتها إلا في المساء فنظر إليها محمد البابلي ضاحكاً وقال: واحدة بواحدة.

وقد تنبأ لها الموسيقيون العالميون بشهرة في دنيا الغناء منذ أكثر من ربع قرن ومنهم "مستر ريتشارز" من أكبر أساتذة الموسيقى في معهد أوبرلن في أمريكا الذي أعجب بصوتها وتذوق حلاوة الموسيقى الشرقية في غنائها.

وتمتاز أم كلثوم إلى جانب تفوقها في فن الغناء بروح مرحة لطيفة لا تفارقها في أحرج الأوقات ولها نكات عذبة تدور في مجالس أهل الفن والأدب.

الفهرس

مقدمة ٥

أدب

أدب امرؤ القيس................................ ٨
معلقة امرؤ القيس.............................. ١٨
ابن المقفع ٤٢
نشأته وبدء شهرته.............................. ٤٢
أخلاقه وزندقة ٤٦
مصرعه:- ٥١
أسلوبه وآثاره الأدبية:- ٥٢
آثاره الأدبية:- ٥٦
الجاحظ... ٧١
رفاعه الطهطاوي ٨٣
جمال الدين الأفغاني............................ ١٠٣
محمد المويلحي ١٠٩
علي يوسف...................................... ١١٨
عبد الله النديم................................. ١٢٣
مي زياده ١٢٨
مصطفى عبد الرازق ١٣٣

طرب

التأليف العربية في الموسيقى ١٤١
فضل العرب على الموسيقى.................... ١٥٠
أبو الفرج الأصفهاني.................... ١٥٦
أصبهان أو أصفهان ١٥٦
رحلته وتعليمه ١٥٧
من صفاته ١٦١
مؤلفاته وشعره ١٦٣
الأغاني موسوعة أدبية.................... ١٦٤
وفاة الأصفهاني.................... ١٦٨
عبده الحامولي ١٦٩
عبد الحي حلمي.................... ١٨٤
سيد درويش ١٩٢
ألمـــظ ٢٠٥
محمد عبد الوهاب.................... ٢١٣
أم كلثوم.................... ٢١٨